

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي أسبوعي يصدر عن جريدة المدى

WWW.almadasupplements.com

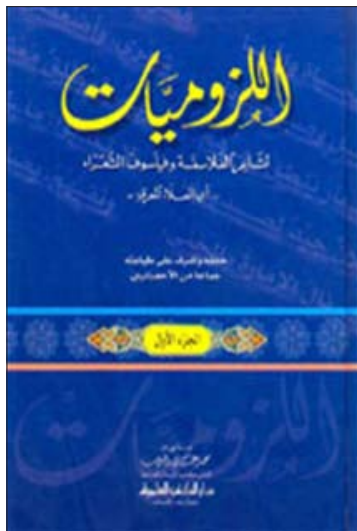
العدد (2803) السنة العاشرة - الأربعاء (22) أيار 2013

منارات
manarat

أبو العلاء المعري

هادي العلوي ولزوميات المعري

فريدة الأنصاري



لجميع تصرفاته وأفعاله.

وبوجه عام يمكننا الاستنتاج كما يذكر العلوي بأن نقد المعري لجميع الأديان يهدف منه التوعية الاجتماعية أكثر من السعي لتقديم تفسير فلسفي لأصل الأديان، فهو نقد معياري بالدرجة الأولى.

وبفضل أفق المعري الواسع الذي أبتعد به عن التحزب لفتة أو لطائفة أو أمة استطاع توجيه النقد لجميع فئات الناس، بمختلف ملهم ونحلهم.

فوعي المعري بالأشياء كما يصفها العلوي هو وعي كوني، فالمفارقات التي بدت له في نظام المجتمع البشري قد رآها في نظام الطبيعة، فعدوان الإنسان يتكامل مع عدوانه على الحيوان، كما الحال مع الحيوانات واعتدائها على بعضها، ومصدر هذه العدوانية هي تلك القوة جعلت كل شيئاً مسيراً لا مخرجاً، وحكمت بقانون القضاء الأزلي على الأفلاك والبشر والحيوانات، فهي تسير وتتحرر بغاية مجهولة نحو غاية معلومة هي الهلاك المحتوم لكل البشر.

وهذه النظرة الإنسانية لم تكن بالمستوى ذاته تجاه المرأة، فلم يكن منصفاً لها، رغم أنه هاجم بشدة الزواج الثاني، باعتبار أكثر ما يضر المرأة هي الضرة، لقد وقف من المرأة موقفاً رجعياً بدعوته إلى التشدد في حجابها، ومنعها من المشاركة في الحياة العامة، ودعى إلى عدم تعليمها القراءة والكتابة.

يختتم المؤلف هذا القسم بتحليل آراء المعري تجاه الدين والسياسة والمجتمع ليصفه بالمتقف الكوني، يتميز بتكامل تكوينه الثقافي بين الذهن والذات، فقد تخلى عن السعادة الحسية في الدنيا لبني له صورة عالم يحيا فيه الإنسان سيداً للجسد، لا أن يصبح في الآخرة عبد للجسد. ولكنه يعيب عليه موقفه من الزنج والقرامطة.

القسم الثاني من الكتاب يورد العلوي مختارات مميزة من نقد المعري للدولة والدين والمجتمع وفق المنهج العلمي.

فيقول في لزومياته عن التمايز الطبقي في الدين

بالخلف قام عمود الدين: طائفة

تبني الصروح وأخرى تحفر القلبا

القلب جمع قلبب وهو البئر.

وعن الأمير والتقي يقول:

قالوا فلان جيد لصديقه

لا يكتبوا ما في البرية جيد

فأميرهم نال الإمارة بالخنا

وتقيم بصلاته يتصيد

ومن دراسة حياة المعري ولزومياته ونقارنها بحياة هادي العلوي التي حملت الصدف اسم جدهما "سليمان" نجد التشابه الكبير بينهما، مما يمكننا القول بأن العلوي كان امتداداً للمعري رغم البعد الزمني بينهما. فالأثنان أثارا أفكارهما وأرائهما الفلسفية وطروحاتهما في الدين الكثير من الجدل، فالشك الذي راود المعري الشك ذاته الذي راود العلوي. وكما اعتزل المعري عن الناس اعتزل العلوي الأضواء ورفض الظلم، ورفض التقرب من أهل السلطة. حين نخرج من كلية التجارة والاقتصاد عام ١٩٥٥ بتفوق رفض مصافحة الملك فيصل الثاني عندما وزع الأخير الشهادات على المتفوقين. وكان مؤمناً بالظلم أشد الإيمان وزاهداً بالدنيا كارهاً للظلم ليس بمطمع في الآخرة وإنما معياراً للمجتمع الصالح. وكما كره المعري أكل اللحوم فكان العلوي هو الآخر نباتياً.

مراحل تطور الفكر الإسلامي وأثره على فكر المعري ونقده للدين والدولة والناس.

بعد أن يبين ارتباط الفكر الإسلامي بالقرآن ارتباطاً وثيقاً وكما يصفه "فهو كتاب الحضارة الإسلامية الأول" يسلط الضوء على تطور الفكر الإسلامي بعد اتساع المجتمع الإسلامي، مبيناً تباين الفكر في شعاب مختلفة، باحثاً في أسباب هذا التباين. ومن خلال ذلك يبين كيف أثر هذا التباين على توجه علماءه وفلاسفته نحو المباحث المعقدة التي دفعتهم نحو منطق معقد إلا وهو المنطق اليوناني، وهذا نشأ كما يذكر العلوي في بيئة إحصائية تجارية ماثلة لا نجد لها مثيلاً في العصور السابقة أو في الدول النائية. والمعري بثقافته المتنوعة وشعريته وفلسفته صنع لنفسه كياناً منفرداً يستند إلى درجة خاصة من وعي الإرادة. وبريادة معارفه الكثيرة والعميقة استطاع تأصيل وعي الذات وصولاً إلى وعي الاختيار الإرادوي، ليستغني عن السلطة السياسية وينقدها.

ففي نقده للدولة والسياسة طرح أموراً عديدة في لزومياته ورد الكثير منها في أوساط المعارضة والحركات الاجتماعية. ولكنه أنفرد عنها بطروحات يجسد فيها وعيه السياسي والاجتماعي الخاص به. فنقرأ ببعض اللزوميات وصفاً لأوضاع البلدان الإسلامية يكشف فيها عن الصراعات الدموية والمظالم ونهب أموال الناس. وفي لزومية أخرى يذكر بأن الملوك هم من يحتاجون إلى تأديب وليس الناس، وهذا

يجب إعطاؤهم عقول حتى يحكموا على أساس السياسة العقلية، ومن يحتاج إلى التأديب لا يصح تكريمه أو السجود له كما تفعل حاشيته. وبوعيه الفلسفي استطاع الوقوف بوجه السلطة الدينية لينتقد الدين كأيديولوجيا وشعائر، ويندد بسلوك المتدينين ورجال الدين، فهو لا يرى أي دور إيجابي لرجال الدين. فيورد نشأة الدين إلى مصالح فردية محدودة، حيث يقوم بعض الأذكى المحتالين بصياغة عقائد وشعائر تجمع الناس حولهم وتمكنهم من استغفالهم، ليكونوا سبباً لجمع المال. إذ استغل الكثير من الخلفاء في مصر وبغداد وحلب الفقهاء والدين كوسيلة لدعم سلطنتهم وتبرير سطوتهم. فهذا الموقف يعزوه العلوي إلى أوضاع الوسط الديني الذي عاصره وإلى اتجاه عام يحكم رأيه في السلوك البشري فتصرف كمؤيد متطرف للمذهب النفسي الذي يرجع جميع تصرفات الإنسان إلى الذاتية جاعلاً من المصلحة الذاتية للفراد دافعاً

في سنة ٣٦٣هـ - ٩٧٣م ولد في معرة النعمان في شمال سوريا أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، ليكون بعد سنين أحد أبرز فلاسفة وشعراء العصر العباسي، أثار نظرياته حول الدين والدولة والناس جدلاً كبيراً بين العلماء والباحثين من يومه حتى يومنا هذا، فتناولوا مؤلفاته بالدراسة والبحث، ومن بين تلك المؤلفات كتاب اللزوميات.

جميع هذه الأسئلة نجد إجابتها في كتاب الباحث هادي العلوي في كتابه هذا (أبو العلاء المعري المنتخب من اللزوميات) والذي دأبت دار المدى على إعادة طبعه بعد النجاح وسعة الانتشار في طبعته الأولى.

اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم هي ديوان المعري، بناه بطريقة مختلفة عن البناء الشعري السائد في زمانه، فالزوم ما لا يلزمه في بناء القوافي، المزاج خاص به كما يذكر العلوي في مقدمة الكتاب. واللزوميات هي أحد ديوانين فلسفيين ثانيهما بعنوان "استغفر واستغفري" يتألف من عشرة آلاف بيت وهي من كتبه المفقودة.

تحمل اللزوميات

أفكار المعري تجاه

الدين والسياسة

وأحوال

الناس، طبع

عام ١٩١٥

في القاهرة

مرفقة بشروح

مبتسرة لا تعين

القارئ لصعوبة

فهم كلماتها.

ولتيسير قرائتها

وفهم معانيها

عكف هادي

العلوي على طبعها

بهذا الشكل المميز مقتصراً

على الأمور التي تهم العصر،

وتستحق أن تنشر بين جميع

الأوساط الثقافية، بقطع النظر عن

زمانها ومكانها. وعليه عكف على

أخذ ودراسة وتحليل ما تتضمنه من نقد

للدولة والدين والمجتمع وآراءه وحكمه حول

الطبيعة والحياة ونظام العالم، رغم علم

العلوي أن هذا الاختيار لن يحسم مشكلة

التواصل مع النصوص بسبب صعوبة

اللغة التي كتبها المعري، مما حدا به لوضع منهج

علمي يسهل المهمة على القارئ، وليكون مؤتمناً

على النصوص والمفردات الأصلية، وضع -

أي العلوي - تحت المفردة الأصلية ما

يقابلها من مفردة تقارب المعنى أو

مرادفة لها، وقريرية من لغة العصر

الحاضر مع الشرح، رغم علمه بأن

هذه الصيغة قد تكون ركيكة ولا

تعكس أسلوب اللزوميات ولكنها

كما يرى الأسلوب الأمثل لتوضيح

أفكار ومفردات المعري.

ولمنهجية التدوين والنقل

وضع لكل ما أختاره

من اللزوميات عنواناً

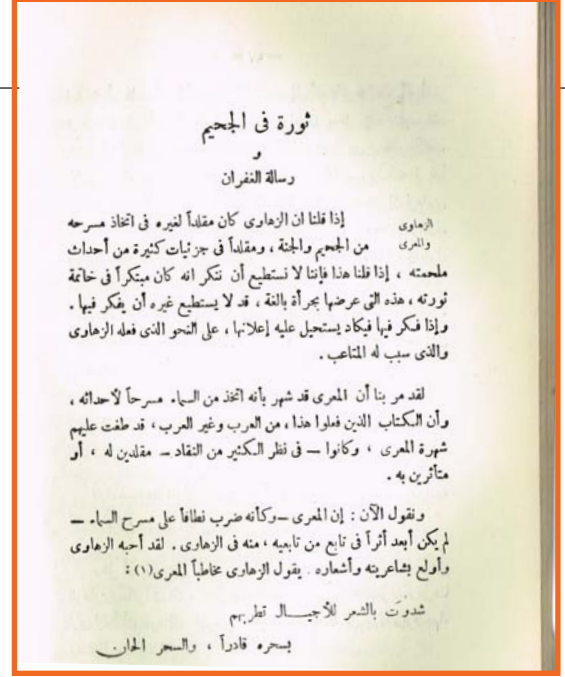
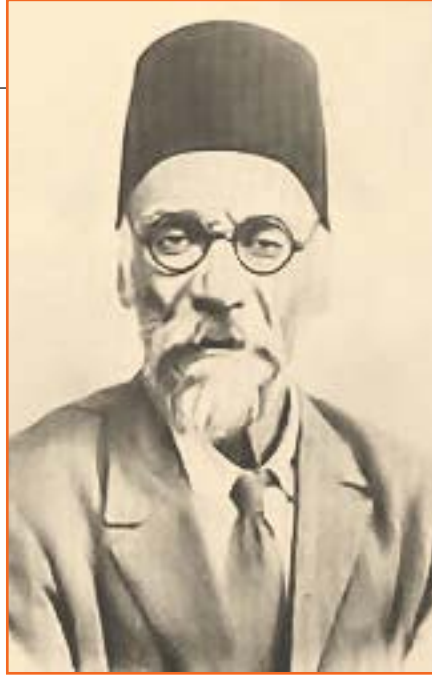
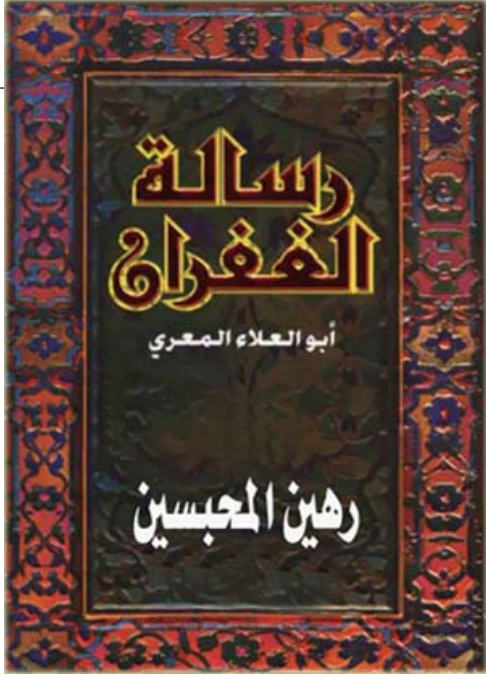
مستمداً من مضمونه.

لفهم فلسفة المعري

ومواقفه يسلط العلوي في

القسم الأول من الكتاب على





الدكتور جميل سعيد

الزهاوي والمعري..

ثورة في الجحيم ورسالة الغفران

شكلها او هيئتها او الوان ريشها او صوتها، وإنما يشتهدى للحمة، وقد تعذر الزهاوي بعض العذر، إذا تصورنا ان الدجاج في ايامه - برحمه الله - لم يكن من الوفرة والكثرة على نحو ما هو عليه في ايامنا هذه: بعد ان عمد الامريكان الى تكثيره بالطرق الصناعية، حتى غزا الدنيا ومله الناس. لقد كان في ايام الزهاوي اكلة لا ينالها إلا الموسرون وإلا المرضى - على انك ترى البون شاسعا في تصور ابي العلاء لهذه الفكرة، وتصور الزهاوي لها. يقول الزهاوي:

فإذا ما اشتهدت طيرا هوى من غصته مشويا وجاء يزور

ويقول ابو العلاء: "ويجبر بين تلك الاكراس - اي الجماعات - طاوس من طوايس الجنة يروق من رآه حسنا، فيشتهديه ابو عبيدة مصوصا فيتكون كذلك في صحيفة من الذهب، فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها الى بعض، ثم تصير طاوسا كما بدأ.. وتمر اوزة مثل البختية فيتمناها بعض القوم شؤءا فتمتثل على خوان من الزمرد، فإذا قضيت منها الحاجة عادت باذن الله الى هيئة نوات الجناح ويختارها بعض الحاضرين كردناجا وبعضهم معمولة بسماق، وبعضهم معمولة بلبن وخن، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون.."

ولك الآن ان تستعيد بيتي الزهاوي:

طينها من فالودج لا يمل المر

منه فهو اللذيذ الغزير

وإذا رمت ان يحول لك التين

دجاجا اتى اليك يطير

وترى كيف توحى لنا الصورة باكلة الطين وهي من الشهوات المريضة في عالمنا، عالم الدنيا اما الصورة الثاني

تفلا ندرى لم اختار ان يكون التين دجاجا، وقد يفضل - بعض الناس على الاقل - فاكهة التين على الدجاج.

ولنا ان نقول بعد هذا كله إننا تعذر الزهاوي - رحمه الله - إذا هو قصر في وصف الطعام، ولو كان طعام اهل الجنة - عن ابي العلاء. ذلك لأن الزهاوي لم يعرف عنه إنه كان نهما، كما لم يعرف عنه أنه كان محروما او جائعا في يوم من ايام حياته.

لقد عاش عيشة الموسرين في بيت ابيه مفتي بغداد، وناهيك بها وظيفة في ايامه، حتى إذا اعتمد على نفسه كان من سراة القوم ووجهاتهم، وعاش حياته المديدة كلها في دعة وفي رغد من العيش.

اما ابو العلاء فقد عرف عنه، انه حرم على نفسه متع الدنيا، والطعام إحداها وقد شهر بتخريمه اكل الحيوان على نفسه.

على اننا بعد هذا كله نرى الزهاوي قد اسف بخياله هنا.

عن كتاب ثورة الزهاوي / 1977

هذه. وفكرة الملكين وسؤال الميت، من الأمور المعروفة التي لا جديد للزهاوي فيها.

زيارة الجنة وقال الزهاوي - والحديث عن الملكين: ثم طارا بي في الفضاء الى الجنة حتى يخري بلومي الضمير.

وجعل لقوله هذا عنوانا: "اخذ الميت الى الجنة ليزدادها من حرمانها اياها" - والصورة - وان عكسها الزهاوي - قرأنيه اوردها ابو العلاء قال:

"... ويبدو له ان يطلع الى اهل النار فينظر الى ما هم فيه، ليعظم شكره على النعم، بدليل قوله تعالى: 'قال قائم منهم إني كان لي قرين، يقول: ائذك لمن المصدقين، ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لندينون.. قال: هل انتم مطلعون، فاطلع فرأه في سواء الجحيم."

ودخل الزهاوي الجنة، بعد ان قال عن الملكين:

وأسرا في انن رضوان شيئا فاباح الجواز وهو عسير

وفكرة دخول الجنة بجواز اوردها المعري، قال على لسان ابن القارح: "... فلما صرت الى باب الجنة، قال لي رضوان:

هل معك من جواز؟ فقلت: لا، فقال: لا سبيل لك الى الدخول إلا به."

طعام اهل الجنة... ودخل الزهاوي الجنة بعد ان اباح له رضوان الجواز وتلقته فاح عطرها والعبير، ووصفها بانها جنة عرضها السموات والارض" وهي الصورة والالفاظ القرآنية، ثم تحدث عن طعامها بانها سمك مقلي، وطير شوي، وبها دوحه يقال لها الطوي تجري من تحتها اثمار من العسر ومن الخمر، ومن الابنان، قال:

ثم للسبيل يطفح والتسليم

ماء يجري به التفجير

وجميع الحصباء در وياقوت وماس، وعلى ارضها زرابي بنث عليها حسان، كأنهن زهور، وبها الولدان يطوفون على القوم وهم لؤلؤ منتور.. ويوالي وصفها بما لا نرى فيه

جديدا بل نراه يقصر فيه عما جاء في القرآن وفي رسالة الغفران، اي تقصير.

وقد تراه يحاول ان يخرج من النطاق الذي ضرب حوله بالقرآن ورسالة الغفران، فلا يأتي إلا بالمضحك، يقول:

طينها من فالودج لا يمل المر

منه فهو اللذيذ الغزير

ولك ان تتصور سكان جنته الذين ينهالون على اكل طينهم، ويرونه لذيذا غزيرا، ويعمد لتصوير الطعام، فلا يأتي إلا بالمضحك من الصور ايضا، يقول:

وإذا رمت ان يحول لك التين دجاجا اتى اليك يطير واوضح

انه اراد ان الدجاج اتى اليك مشويا او مطبوخا لتأكله، ذلك لأن الدجاج ليس من الطيور التي يشتهد بها الناس لجمال

والمعري الشيخ وهو ضير.

لولا هذا لقلنا إنه حشره مبصرا، وهي الصورة المناسبة او الممكنة لمن يكون قائدا. اترى التافيه هي التي دفعت الزهاوي الى لفظة ضير، هذه، حتى افسد بها صوره ومعانيه؟! ام تراه اصرا ان يحشره اعلى، مبالغة منه في عصبانيته وندقته، إذ حشره وكأنه ينظر الى الآية الكريمة

"ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة اعمى."

انني اميل الى الناحية الأولى، ناحية القافية، لأنني لا اتصور الزهاوي، وقد احب المعري كل هذا الحب وتعلق به كل هذا التعلق، حتى جملة قائد الثائرين وامامهم، يقسو عليه كل هذه القسوة، إن أبا العلاء حشر بشارا الاعمى بصيرا في غفرانه، وهو وإن حشره بصورة يفضل بها الاعمى البصير، إذ جعله يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم، فيفتحها الزبانية بكلايب من نار إلا اننا نراه لم يهن عليه ان يجعله في عذابين؛ عذاب الجحيم وعذاب العمى. بل نرى المعري وقد عانى من عذاب دنياه ما عانى يأبى إلا ان يرد لمن ضعف بصره في الدنيا بصره، وهو اقوى ما يكون، في الحشر. يقول والاشارة الى ابن القارح: "... وينصرف عنه رشيدا الى حميد بن ثور، ويقول:

إيه يا حميد! لقد احسنت في قولك:

ارى بصري قد رايتي بعد صحة

وحسبك داء ان تصبح وتسلم

فكيف بصرك اليوم؟

فيقول: إني لأكون في مغارب الجنة فالبح الصديق من اصداقائي وهو بمشارقتها، وبيني وبينه مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة، فتعالى الله القادر على كل بديع... ارايت اي بصر اعطاه لاشفاقه على بصره الذي رابه في العاجلة؟! اترى الزهاوي، وقد تعلق بالمعري كل هذا التعلق واعجب به كل هذا الاعجاب نظر الى هذا كله، ثم حشره مع ذلك اعمى؟! إننا نستبعد هذا.

الحديث عن الملكين ونعود الآن الى الثورة في الجحيم، ونقول: غن الزهاوي قد استهلها بالحديث عن الملكين؛ منكر وتكبير. ويبدو ان خوفه منهما كان يعودا في حياته بين الحين والحين لقد رنى احمد تيمور باشا، فلم يجد في رثائه

اولى من ان يقول فيه:

لا يخاف الذي يموت حكيما

من سؤال المنكر وتكبير

ولعلك تعجب لهذا الضرب من الرثاء، الذي يصور الملكين من كبار الفلاسفة ولا ينجو او ينجح في امتحانها إلا الحكيم. نقول: لقد سيطرت فكرة الملكين منكر وتكبير عليه، فادار حوارهما معه في اكثر من ثلاثمائة بيت، في قصيدته

إذا قلنا ان الزهاوي كان مقلدا لغيره في اتخاذ مسرحه من الجحيم والجنة، ومقلدا في جزئيات كثيرة من أحداث ملحتمه، إذا قلنا هذا فإننا لا نستطيع ان ننكر انه كان مبتكرا في خاتمة ثورته، هذه التي عرضها بجرأة بالغة، قد لا يستطيع غيره ان يفكر فيها. وإذا فكر فيها فيكاد يستحيل عليه اعلانها، على النحو الذي فعله الزهاوي والذي سبب له المتاعب.

لقد مر بنا ان المعري قد شهر بأنه اتخذ من السماء مسرحا لاحدائه، وان الكتاب الذين فعلوا هذا، من العرب وغير العرب، قد طغت عليهم شهرة المعري، وكانوا - في نظر الكثير من النقاد - مقلدين له، او متأثرين به.

ونقول الآن: إن المعري - وكأنه ضرب نطقا على مسرح السماء - لم يكن ابعد اثرا في تابع من تابعيه، منه في الزهاوي. لقد احبه الزهاوي واولع بشاعريته واشعاره يقول الزهاوي مخاطبا المعري:

شدوت بالشعر لأجبال تطربهم

بسحره قادرا، والسحر الحان

ألفاظه ومعانيه تمازجنا

كما تمازج ارواح وايدان

قصائد ومقاطع مخلدة

سارت بها في فضاء الأرض ركبان

فيها الحقائق مبعوث فراندا

كانها لؤلؤ رطب ومرجان

هذا حديثه عن شعره!

لقد اعجب الزهاوي بشاعرية المعري، وكان اكثر عجباً بأرائه التي خرج بها على التقاليد، وبسخريته وعصبانيته، يقول:

وإن اكبر شيء فيك يعجبني

سخرية بتقاليد وعصيان

وفي هذه القصيدة يشير الزهاوي الى صلته الوثقى بالمعري بقوله:

إني تتلمذت في بيتي عليك وإن

ابلت عظامك ازمان وازمان

ويكفيها إن الزهاوي جعل المعري، هو قائد الجمهور في ثورته في الجحيم، وزحفه من النار، وكأنه لفتنته به، نسي ان الرجل اعمى وان العميان وإن صلحو القيادة الناس في افكارهم، فانهم لا يصلحون لقيادة الناس، في زحفهم وحرورهم.

على اننا نود ان نقف هنا وقفة قصيرة، فنقول: لولا اننا وجدنا الزهاوي يشير الى انه رأى المعري في الجحيم ضريرا، إن يقول في حديثه عن الجحيم:

ثم حياتي احمد المتنبني



أبو العلاء المعري.. القضية أكثر من قطع رأس تمثال!

خمسة وأربعين سنة، وحدثت أنه مرض مرة، فوصف الطبيب له الفروج، فلما جاء به لمسه بيده وقال: استضعفوك فوصفوك، هلا وصفوا شبل الأسد (معجم الأدياء).
أول ما سمعنا بالمعري، كاسم، ونحن تلاميذ المدرسة الابتدائية، لم نتعلم شيئاً عنه في المنهج، إنما عمدت وزارة المعارف العراقية، في الخمسينات، من القرن الماضي، إلى فتح مدرسة على حافة الأهوار بمحافظة الناصرية، وجعلت اسمها مدرسة "أبي العلاء المعري"، ولعلها قائمة حتى هذا اليوم، فأسماء كثيرة تبدلت، ومن البشارة أن يظل اسم المدرسة باقياً، فهناك أصوات علت ضد تمثال أبي نواس، الذي عاصر العابد معروف الكرخي (ت ٢٠٠)، وقيل دفنا في مقبرة واحدة.

تمثال المعري بمعرة النعمان

قبل هذا وقف أحد فقهاء الدين، مع انفتاحه غير المرغوب فيه من المتشددين، قبيل الحرب العراقية الإيرانية، يطلب

مروة (اغتيال ١٩٨٧)، ومن أطلق الرصاص على فرج فودة (اغتيال ١٩٩٢)، ومن وضع السكين على رقبة نجيب محفوظ (ت ٢٠٠٦)، لم يقرأوا لهم، إنما صدرت فتوى من مشايخهم بهدر دماء هؤلاء.
ترك أبو العلاء المعري حواراً وجدلاً، شغل به الأجيال والعصور، ولعله كان الأكثر حضوراً بين مجاليه في التراجم والرود، مع عدم نسيان بيت أبي الطيب المتنبّي (اغتيال ٣٥٤ هـ)، وكان المعري يعيشه:
أنا مملّ جفوني عن شواربها
ويسهّر الخلق جراًها ويخصم

كان المعري مسالماً إلى كره تناول اللحم، وعاش نباتياً، وفهم المتأخرون سلوكه هذا، فكانت الوليمة التي أقيمت في احتفالية المجمع العلمي السوري به خالية من أثر حيواني، لا بيضاً ولا لبناً، ويُنقل عنه أنه قال متحدثاً مع فرخ الدجاج. روى القصة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ناقلاً عن مجاليل المعري غرس النعمة أبي الحسن الصابئي (ت ٤٨٠ هـ): "لم يأكل اللحم منها

على أية حال، ليس هذا شاهد مقالنا، إنما الشاهد هو إيذاء أبي العلاء المعري في قطع رأسه، بعد مرور نحو ألف عام على وفاته، وتسعة وستين عاماً على نصب تمثاله، وتكفي هذه السنون أن يكون جزءاً من معرة النعمان، حيث ولد ووجد صاحبه. تحطيم النصب التذكارية، في حالة المعري، لا علاقة لها بالسياسة، فلم يكن حاكماً فأسقطته ثورة أو انقلاب مثلما سيحدث لتمثال حافظ الأسد (ت ٢٠٠٠)، أو جداريات نجله بشار الأسد، ومثلما حدث من قبل مع نصب صدام حسين (أعدم ٢٠٠٦) وغيرهم الكثير.

إنما كان قطع تمثال المعري لسبب آخر، فكري بالأساس يتعلق بالتشدد الديني، وهو في الحالتين إن كانت فعلتها جماعة النصرّة الأصولية أو فعلها النظام السوري كي يشبع الرعب في نفوس أهل الفكر والثقافة من الجماعات التي تحاربه، يكون السبب دينياً وقمعياً ضد أهل الأفكار. مع ظننا أن الذي قطع رأس أبي العلاء، حاله حال من صوب كاتم الصوت على حسين

سارت الركببان بنياً قطع رأس الشاعر والفيلسوف (من خلال ما طرحه في لزومياته) أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ). أقول قطع رأس المعري لأن السيف ما كان يقصد التمثال، فلو قصد ذلك لهدم التمثال كاملاً، لكنه كان يقصد صاحبه، الذي نصب بمسقط رأسه معرة النعمان، من عمل نحات سوري فتحي محمد قباوة (ت ١٩٥٨)، ونُصب تكريماً للمعري عام ١٩٤٤، لمناسبة مرور ألف سنة على وفاته، هذا ما اشتهر عن المناسبة. لكن عند الحساب لا أظن أن عام ١٩٤٤ يصادف الذكرى الألفية لوفاة المعري، ذلك أنه توفي ٤٤٩ هـ والمصادف بالميلادي ١٠٥٧، وأن ١٩٤٤ تصادف بالهجري ١٣٦٣، فكيف تكون ذكرى الألفية، وهي من المفروض أن تصادف ٢٠٥٧ ميلادياً و١٤٤٩ هـ إذا أخذت على التقويم الهجري.

رشيد الخيون

بين ناصر خسرو وأبي العلاء المعري

محمود ياسين خلف



ناصر خسرو واحد من أعمدة الشعر الفارسي وله مؤلفات هي: ديوان شعري يزيد عدد أبياته على أحد عشر ألف بيت، ويزاد المسافرين، الذي كتبه نثرًا ليوضح فيه فكر الاسماعيلية التي تقوم عليها دعوتهم، وسفر نامه، وهو أهم كتاب له سجل فيه أخبار رحلاته التي استمرت سبع سنوات في العالم الإسلامي، ولهذا يعد الكتاب ذا أهمية كبيرة في جغرافية البلدان التي زارها وكذلك تاريخها حيث كان خسرو حريصاً على وصف كل إقليم يزوره وصفاً دقيقاً سواء من ناحية الطقس أم المحاصيل التي ينتجها أم الانهار التي تمر بهذا الإقليم أو ذلك، كما كان يعرض الوضع السياسي لكل إقليم ويتحدث عن حكاهم وحالة الأمن هناك، وأكثر الأقاليم التي حظيت باهتمامه، وأسهب في وصفها، هي مصر، وربما يرجع ذلك إلى أنه قضى فيها أكثر من أي مدة قضاها في أي بلد في أثناء رحلته، إذ عاش هناك ثلاث سنوات متتالية وأتاح له هذه الإقامة الطويلة فرصة التعرف على نظام الحكم الفاطمي في مصر، وعلى أحوال مصر المناخية والاجتماعية، ولهذا يعد الكتاب مرجعاً مهماً في التعرف على طبيعة الحياة في مصر ابان منتصف القرن الخامس الهجري، ومما يميز به الكتاب (سفر نامه) ان أسلوبه جاء بعيداً كل البعد عن التكلف والمغالاة في الصنعة، ولعل ناصر خسرو ألفه بهذا الأسلوب الذي يمكن أن نطلق عليه (السهل الممتنع) لكي يكون في متناول فهم الخاصة والعامة على حد سواء وقد نجح في ذلك، إذ حاز هذا الكتاب على شهرة كبيرة بين الجميع فطبع عدة مرات وترجم إلى لغات عدة منها الفرنسية، إذ قام شيفر (SHEFER) بطبعه وترجمته في باريس عام 1881م، كما ترجمه إلى العربية د. يحيى الخشاب، ومن سمات هذا الكتاب أنه خلا من المصطلحات الفلسفية التي تسخر بها تعاليم فرقة الاسماعيليين وتجنب الخوض في غمار هذا التيار الفلسفي ومما نخرج به من الكتاب وسيرة مؤلفه ان السياحة العلمية كانت ميسورة لكل مسلم لكي يطوف في كل ربوع العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه من دون وجود حدود اقليمية تمزق الوحدة الإسلامية وتضعف كيان العالم الإسلامي كما هو الحال في عصرنا الحديث فكم من عالم أراد الاستزادة من بحار العلم فهجر موطنه الأصلي وتحرك صوب مراكز العلم والحضارة في العالم الإسلامي سواء في بغداد أم دمشق أم القاهرة أم مكة.

ومن سمات الكتاب كذلك انه كان يتحدث عن فضلاء وأدباء وعلماء كل بلد يزورها ولذا يعد الكتاب إلى جانب مزاياه السابقة، ذا فائدة في التعريف لبعض هؤلاء الاعلام الذين التقى بهم ناصر خسرو في رحلته، وعلى سبيل المثال ما قاله عن أبي العلاء المعري عندما التقى به في (معرة النعمان) :- «في تلك المدينة كان يوجد رجل يقال له أبو العلاء المعري، وكان ضريراً، كما كان حاكماً للمدينة، يملك نعماً وغيرة والعديد من الغلمان والعمال، وكان جميع سكان المدينة بمنزلة العبيد لديه. اما هو فقد اتخذ الزهد طريقاً له. فكان يرتدي خشن الثياب ويلزم داره وكان يستهلك نصف رغيف من الشعير، إذ لم يكن يأكل خلاف ذلك مطلقاً. ولقد سمعت ان باب قصره كان مفتوحاً على الدوام وكان نوابه وملازموه يصرفون أمور المدينة ولا يرجعون اليه الا في الأمور الكبيرة. ولم يكن يحرم أحد من نعمائه، اما هو فكان صائم الدهر، قائم الليل على الدوام ولا يشغل نفسه بشغل الدنيا على الاطلاق، وقد وصل هذا الرجل في مجال الشعر والأدب الى درجة ان أفاضل الشام والمغرب والعراق قد أقروا انه خلال ذلك الزمان لم يصل الى مكانته أي شخص ولن يصل. وعلى الدوام كان يقد إليه أكثر من مائتي شخص من الأطراف ليقرؤوا بين يديه الأدب والشعر وقد سمعت بانه نظم شعراً يزيد على المائة ألف بيت».

وقد سأله أحد الأشخاص: لقد منحك الله تبارك وتعالى كل هذه الاموال والنعم فلماذا تمنحها للآخرين وتحرم نفسك؟ اجاب قائلاً: ليس لي أكثر مما اطعمه؛ وعندما كنت هناك (بمعرة النعمان) كان هذا الرجل على قيد الحياة (اي ابي العلاء المعري).

خصائصه" (ذكرياتي).

أبو العلاء المعري بعد قطع رأسه!

كانت واحدة من روائعه، وسماها شاعرها بتاج القصائد، التي قالها آنذاك. من يسميها بصوت الجواهري أو يقرأها في ديوانه قد يكتفي بفهم المعري، ويندفع لقراءة كتبه ودواوينه، ومطلعها وأول أبيات منها: قف بالمرعة وأمسحْ خدَّها التُّربا واستوح من طوق الدنيا بما وهبا واستوح من طب الدنيا بحكمتها ومن على جرحها من رُوحه سَكبها وسائل الحفرة المرموق جانبها هل تبتغي طعاماً أو ترتجي طلبا يا بُرجُ مفخرة الأجداد لا تهني أن لم تكوني لأبراج السما قطبا فكلُّ نجم تمنى في قرارته لو أنه بشعاع منك قد جذبا وتجده يصف أحوال المعري، ويصوره وهو في بساطة العيش وثرأ الفكر قائلاً: من قبل ألف لو إنا نبتغي عظة وعظمتنا أن نضون العلم والأدبا على الحصير.. وكور الماء يرقده وذهنه.. ورفوف تحمل الكتب ومنها البيت المشهور:

لثورة الفكر تاريخ يحدِّنا

بأن ألف مسيح دونها صلبا ويختم الجواهري قصيدته، التي أراد لها أن تكون معلقة في العدد، مثلما كانت معلقة في الحبكة:

لكن بي جنفاً عن وعي فلسفة

تقضي بأن البرأيا صنفت رتباً وأن من حكمة أن يجتني الرطباً

فردَّ بجهد ألوف تلك الكُربا

هذا ولم يكن الجواهري وحده من بين

العراقيين الذين قدروا أدب المعري وفكره، بل سماه معروف الرصافي (ت 1945)

بشاعر البشر (كتاب الشخصية المحمدية)،

وصنّف فيه أكثر من كتاب، تركها

مخطوطات، ثم طبعت بعد وفاته،

مثل: "على باب سجن أبي العلاء

المعري" (بغداد 1946)، وكتاب

"آراء أبي العلاء المعري" (بغداد

1955). (صفوة، معروف الرصافي).

لقد أثر المعري كثيراً في رواد النهضة

الفكرية العربية، وفتح لهم ومهد لجني

ثمار النهضة الأوروبية، فالأصل كان

هنا وفي قصائد المعري، ورسائل

إخوان الصفا، الذين يقول طه حسين:

إنه تأثر بهم عندما أقام ببغداد سنة

وسبعة شهور، وعاد يكتب رواثه بمعرة

النعمان، وشعره يؤكد إقامته ببغداد

وانتفاعه منها، وهو القائل: لنا ببغداد من

نهوى تحبته

فإن تحملها عنّا فحينا (سقط الرند).

لقد خيب الجواهري ظنون الذين ظنوا

أن شاعر القصيدة وموضوعها قد بعدا

عن الدين، وعليه استحق المعري أن يُقطع

رأسه. قال:

أمنت بالله والنور الذي رسمت

به الشرائع عراً منهجاً لحبا

وصنّت كل دُعاة الحق عن ربيع

والمصلحين الهداة العجم والعربا

وقد حمدت تبغيعاً لي على رَسدي

أما وجدت على الإسلام لي وأبا

(الديوان)، والقصد لا يحتاج إلى تفسير

وتأويل.

عن موقع مجلة المجلة الالكترونية

خفيات فكره، وبسطت لأجيال شخصيته وسلوكه. واعترض على من قال: إنها بداية الجواهري، بل له قصائد معلقة منذ العشرينات من القرن الماضي، لكن الكلام يرمى على عواهنه عندما يقول أحدهم إن هذه القصيدة كشفت شاعرية الجواهري، وهي من مطولات الشاعر، ولو قرأها قاطع رأس تمثال أبي العلاء المعري، وكان منصفاً، لاعتذر عن فعلته.

تحدث الجواهري عن ولادة قصيدته "قف بالمرعة"، كان مسافراً إلى الشام مع ناظم الزهاوي وحسن الطالبايني، فأنزل في نقطة التفطيش، والتحق بعدها، وكان ذلك (1944) أوان الانتداب الفرنسي، وبطريق الصدفة علم أنه ضمن الوفد العراقي المقرر حضور ألفية أبي العلاء، أخبر بذلك قبل أسبوع، وهو قبل يوم لم تكتمل لديه القصيدة، فقد كتب قصيدة تضمنت سبعين بيتاً، لكنه مزقها ورمها، لأنه لم يجد فيها أبا العلاء المعري، فاصطحبه صديقه عمر أبو ريشة معه إلى زحلة لبنان، وهناك حضر المطلع فقط (الجواهري، ذكرياتي).

اكتملت القصيدة ليلة المهرجان، وتضمنت نحو مئة بيت. حضر المهرجان طه حسين وكبار الأدباء، ودفع طه خمسة آلاف جنيه لإتمام بناء قبر أبي العلاء، والصرف على نشر كتبه (الجواهري، ذكرياتي).

بهذا يمكن القول: إن طه حسين يرى نفسه

في المعري، فهو العام 1914 يكتب "ذكرى

أبي العلاء"، ويقدمها في ما بعد لنيل

الدكتوراه الأولى (1925)، فالثانية كانت

عن ابن خلدون، وهو يتحمس لهذا المهرجان

ويصرف عليه، وأن الجواهري كان وهو

يقرأ قصيدته يشير إلى طه بلا قصد، وكأنه

يخاطب المعري، فقد جمع بينهما العمى

والفكر أيضاً. يقول الجواهري واصفاً

ذلك الموقف: "بينما كنت ألقى القصيدة

كانت يدي اليمنى تمتد، عفو الخاطر، إلى

الكثف اليسرى للدكتور طه حسين، الذي

كان بجانبني، وهذا الرجل ليس أبا العلاء،

لكنه كان الوحيد ممن يجمع ما بين فكره

وملامحه شيئاً غير قليل من

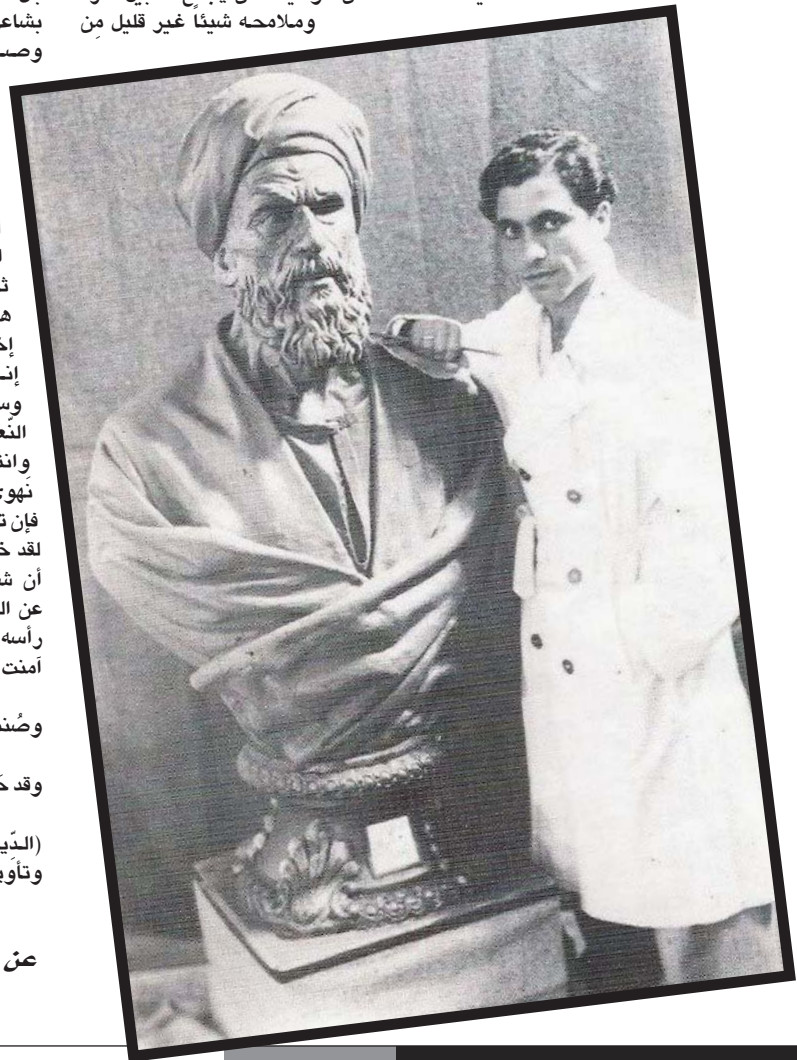
إزالة تمثال أبي نواس، على أنه فارسي مجوسي. لكن أبا نواس ولد بالبصرة من أب في الجيش المرواني وأم بصرية، أسماها جليان اشتهرت بعنايتها للأطفال اللقطاء، وهو منحى إنساني، فالأمر يتعلق بالطفولة، غير أن من كتب سيرة أبي نواس أخذ إنسانية أمه مثلباً عليه. قال ابن منظور (ت 711 هـ): "أمرأة موسورة بالبصرة، كانت تجمع أولاد الزنا وتربئهم" (مختارات الأغاني). وفعلها الإنساني هذا لا يقل أهمية مما فعله صعصعة بن ناجية جد الشاعر الفرزدق (ت 110 هـ) يوم كان يدفع ديات البنات في الجاهلية، حتى لا يؤذن، فقال الحفيد:

وجدي الذي منع الوادات

وأحيا الوليد فلم تُود

كان أبو نواس في الحرب بين الأخوين الخليفة محمد الأمين (قتل 198 هـ)، وأمير خراسان عبد الله المأمون، مع الأول، وكان أنصاره من العرب بينما كان أنصار الثاني من الفرس. نعم هجا أبو نواس عرباً وهجا موالياً أيضاً، وهو شاعر الحدائث، ومن حقه ببغداد نصيباً وذكرى! كذلك جرت محاولات، بعد أبريل (نيسان) 2003 استبدال اسم الشارع "أبو نواس" بتسمية المهدي، مع أن المهدي لم يلد ولم يغيب ببغداد بل بسامراء، حسب المشهور من الأخبار. لكنه العناد والاستحواذ، فمثل أبي نواس ليس له جيش ولا ميليشيا تدفع عنه الأذى، بينما كم ارتقت بغداد وشاع التبغدد (التحضر) عبر شعره.

بعد اسم تلك المدرسة عرفنا أبا العلاء المعري عن طريق رائعة محمد مهدي الجواهري (ت 1997) "قف بالمرعة"؛ التي ألقاها العام 1944، بحضور طه حسين (ت 1973)، وقد اهتز لها الأخير، بمناسبة ألفية الشاعر. وليس تعصبا بلدانياً للجواهري لأنه العراقي، غير أن الحقيقة أنه لم يقل في المعري مثلما قال فيه الجواهري، بل شرحت القصيدة



أبو العلاء المعري كما رآه طه حسين:

فيلسوف مشاكس

ابراهيم العريس



من المؤكد أنه لم يكن من المنطقي أن يمر الناس مرور الكرام بالجريمة «الرمزية» التي ارتكبت في سورية قبل أسابيع في حق تمثال. فالتمثال المعني لم يكن لشخص سياسي أو لشخص، بل كان لوحد من أكبر الشعراء والفلاسفة في التاريخ العربي... ويقيناً أن المتخلفين الذين قطعوا رأس التمثال، لم يفعلوا ذلك لأسباب جمالية ناتجة من قبحه - لو أعلنوا ذلك لكننا معهم! ولكن لأسباب لها علاقة بالتعبير عن موقف فكري وبالتالي سياسي. موقف يحاول أن يتصدى للعقل قائلاً إن جزءاً من «الربيع العربي» الموعود هو هذا أيضاً... هو انتصار للظلام على النور، وللهجبة على التحرر ولالإرهاب على العقل... ونعرف أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يُقدم فيها هذا النوع من الناس على هكذا جريمة في حق الفكر وليس فقط في حق صاحب التمثال، أبي العلاء المعري. وللمناسبة، لتذكير القارئ بمن هو أبو العلاء ولماذا يعبت المتخلفون بتمثاله، لا بأس من العودة هنا إلى ما بعض ما كتبه «معري» القرن العشرين العربي، طه حسين، عن سلفه الكبير في واحد من أول كتبه التي طبعت الجزء العقلاني من هذا القرن العشرين بطابعها.

«... ثم عرض لي أن أدرس حياة أبي العلاء، ذلك الذي أبغضته ونفرت منه، ولست أدري لم حُبب إلي البحث عن هذا الرجل؟ ولم كلفت به الكلف كله؟ مع أن كتبه قد ضاع أكثرها، فقد خيل إلي أنني أستطيع أن أجد في ما بقي منها ما يشفي الغليل، وقد سمعت الناس يتحدثون عن اللزوميات فلا يتفقون فيها على رأي. وسمعتهم يصفون أبا العلاء بالإسلام مرة وبالكفر مرة. ورأيت الفرنج قد غنوا بالرجل عناية تامة، فترجموا لزومياته شعراً إلى الألمانية، وترجمت «رسالة الغفران» وغيرها من رسائله إلى الإنكليزية، وتخبروا من اللزوميات والرسائل مختارات نقلوها إلى الفرنسية، وأكثروا من القول في فلسفته ونبوغه. ورأيت بيني وبين الرجل تشابهاً في هذه الأفة المحتومة، لحقت علينا في أول صباه، فأثرت في حياته تأثيراً غير قليل...» بهذه العبارات، قدم الشاب الذي كان طه حسين في عام 1914 لأول كتاب صدر له، بعد تخرجه في الجامعة المصرية. وكان هذا الكتاب في الأصل أطروحته لنيل «شهادة العالمية ولقب دكتور في الأدب»، الأطروحة التي قدمها عام 1914 نفسه ونوقشت في ربيع ذلك العام، ليكون طه حسين بها، أول من ينال الدكتوراه من هذه الجامعة في تاريخها. أما العنوان الذي وضعه للكتاب فهو «تجديد ذكرى أبي العلاء»، والحقيقة أن هذا الكتاب/ الأطروحة، سيكون الحلقة الأولى في سلسلة كتب ودراسات عدة وضعها طه حسين عن شاعر المعرة وفيلسوفها، تؤكد الكثير من الروابط بينهما، ومن هذه الحلقات: «مع أبي العلاء في سجنه» و«صوت أبي العلاء».

حين اختاره واختار فلسفته موضوعاً لدراسته اللاحقة في جامعة السوربون. ولعل أهمية إضافية يمكن هنا أن نسبها على دراسة طه حسين الأولى لأبي العلاء، هي التي تكمن في أن طه جرب على دراسته تلك، فلسفة الشك، وإن في شكل بدائي، تلك الفلسفة التي استطاع لاحقاً دراسته كلها وإن يكن بمضامين أكثر وضوحاً وعمقاً في الوقت نفسه.

يوضح طه حسين، منذ التمهيد أنه جعل «درس أبي العلاء درساً لعصره» مضيافاً أنه استنبط «حياته مما أحاط به من المؤثرات، ولم أعتمد على هذه المؤثرات الأجنبية وحدها. بل اتخذت شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث، بعد أن وصلت إلى تعيينها وتحقيقتها، وعلى ذلك فلسفتي في هذا الكتاب طبيعياً فحسب، بل أنا طبيعي نفسي أعتمد ما تنتج المباحث الطبيعية ومباحث علم النفس معا». والحقيقة أننا لإدراك أهمية هذا الكلام يتوجب علينا أن نتذكر أنه كتب

أوائل القرن العشرين، في وقت كانت أوروبا لا تزال عند أول اكتشافها، مع فرويد، دور علم النفس والتحليل النفسي في دراسة الأدب وعلاقته بحيات الأديب. وانطلاقاً من هنا يصبح من الأسهل على القارئ فهم تلك الصورة التي إذ أثرت عن أبي العلاء، واستخدمت إما لمدحه وإما لذمه، إما لتكفيره وإما لحمايته، صارت لدى طه حسين إطاراً لفهم العصر وفهم الرجل. وهكذا يؤكد لنا طه حسين، في التمهيد، ثم بتفصيل مسهب خلال فصول الكتاب أن أبا العلاء «ثمره من ثمرات عصره، قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية. ولسنا نحتاج إلى أن نتذكر الدين، فإنه أظهر أثراً من أن نشير إليه، ولو أن الدليل المنطقي لم ينته بنا إلى هذه النتيجة لكانت حال أبي العلاء نفسه منتهية بنا إليها، فإن الرجل لم يترك طائفة من الطوائف في عصره، إلا أعطاهما وأخذ منها (...). فقد هاج اليهود والنصارى، وناظر البوذيين والمجوس، واعترض على المسلمين، وجادل الفلاسفة

والمتكلمين، ودم الصوفية، ونص على الباطنية، وقبح في الأمراء والملوك، وشنع على الفقهاء وأصحاب النسك، ولم يعف التجار والصناع من العذل واللوم، ولم يُخل الأعراب وأهل البادية من التفتيد والتتريب. وهو في كل ذلك يرضى قليلاً ويسخط كثيراً، ويظهر من الملل والضيق، ومن السأم وحرص الصدر، ما يمثل الحياة العامة في أيامه، بشعة شديدة الإظلام».

وإذ يؤكد طه حسين، في المقالة حول فلسفة أبي العلاء، أن هذا الأخير كان فيلسوفاً حقاً، نراه يدل على ذلك بقوله إن الفيلسوف، في تعاريفه الأصلية هو الرجل الذي درس العلوم الطبيعية والإلهية والخلقية درساً علمياً متقناً، وبسط سلطاتها على حياته العملية وسيرته الخاصة، فلم يكن تناقض بين هذه العلوم وأعماله. أما إذا أتقن الرجل هذه العلوم لكن حياته ناقضتها «إذ يعرف الفضيلة ويناضل عنها ولكنه لا يصطنعها في سيرته» فإنه لا يكون فيلسوفاً، وإنما هو عالم بالفلسفة... وإذ يحذر طه حسين هذا يقول: «إذ صَحَّ هذا، فإن ما قدمنا في المقالة الثانية من سيرة أبي العلاء وأخلاقه وحياته في منزله وبين الناس، ومن درسه الفلسفة في أنطاكية وطرابلس وبغداد، يدلنا على أنه كان فيلسوفاً حقاً، كما سيدلنا على ذلك درس اللزوميات...».

ولعل من المفيد أن نلتفت هنا إلى أن طه حسين، نشر الكتاب نفسه في طبعة ثانية، صحيح أنه لم يحدث فيه أي تعديل، على رغم انتقادات عدة وجهت إليه، غير أنه وضع مقدمة لتلك الطبعة الجديدة، أبدى فيها من النقد لعمله ما لم يتجرأ آخرون على إيراده بمثل ذلك الوضوح، موضعاً أن في الكتاب «فصولاً وأقساماً تحتاج إلى التغيير، وأعطى مثلاً على ذلك المقالة الخامسة التي رآها «شديدة الإيجاز تحتاج إلى أن يُفصل القول فيها تفصيلاً يفي بما بينها وبين حكمة الهند وفلسفة أبيقور من صلة»، والمقالة الثالثة التي لا تخلو كذلك من «إيجاز في وصف الآثار الأدبية لأبي العلاء». ويستطرد طه حسين هنا أخذاً على معظم منتقدي كتابه أنه لم يجد «في ما كتبه إلا شتماً وسباً، وإلا طرقاً في الفهم معوجة، ومناهج في التفكير عتيقة» خاتماً: «وما زلت أنتظر نقد الناقد المخلص لا يدعوه إلى نقده إلا حب العلم والرغبة في الإصلاح...».

حين أنجز طه حسين أطروحته هذه، كان في الخامسة والعشرين، إذ إنه من موليد عام 1889 الذي شاعت المصادفة أن يولد فيه أيضاً بعض أقطاب العصر اللبيري الكبار في الفكر العربي مثل العقاد والمازني وعبد الرحمن الرافعي وميخائيل نعيمة. وطه (طاهر) حسين، ولد فقيراً قرب مدينة مغاغة، ثم أصيب صغيراً بمرض أفقده بصره - وهو لاحقاً سيكتب سيرته كلها في كتابه الرائد «الأيام» - وانتقل في عام 1902 ليدرس في الأزهر حيث أظهر ذكاء ونجاسة كبيرين، كما أظهر تمرداً ومشاكسة... وكل هذا لن يفارقه طوال حياته التالية التي مرت بالجامعة المصرية ثم بالدراسة في فرنسا والعودة إلى مصر... وبدء رحلة قاده إلى أعلى المراتب الجامعية ثم الوزارية والنزعت في كتب مهمة ألفها، منها ما أثار زواجب، ومنها ما علم أجيالاً، منها ما ألهف ومنها ما ترجمه... كل هذا جعله عميداً للأدب العربي عن حق، وعلامة أساسية من علامات الفكر العقلاني العربي طوال القرن العشرين، هو الذي توفي في عام 1973.

نقلاً عن صحيفة "الحياة" 2008

زيارة "المعري" لبغداد مثابة مهمة في حياته وتوجهاته

شكيب كاظم

به المعري إنما هو عجز من قصيدة رائعة شائعة يرد فيها هذا البيت :
وإذا أتت مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل
تري هل كان المعري يقصد التعريض بالمرتضى أم أنه استشهد بعجز البيت ليشير إلى قصيدة المتنبي العصماء تلك ؟ وهل كان المرتضى محقا في تفسيره وتأويله لقولة المعري أم إنها جاءت رمية من غير رام ؟
كانت هذه الإهانة التي لحقت بالمعري وسحبته من مجلس الشريف المرتضى مذلا مهانا خاتمة لعلاقته مع بغداد إذ أزمع مع نفسه ووطنها على الرحيل حتى إذا غادرها في الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ كان يمضي النفس بقاء أمه تعويضا عن الم مغادرة بغداد هذا الحزن الرؤوم الرؤوف الذي يبقى الإنسان منا يهفو إليه مهما امتد به العمر وكبر، ويظل يحس بألم فقدان وخسارته على رغم السنين ولكن كانت ضربة الدهر أسرع فلقد تخطفها الموت مما أوقع المعري في هاجس الوحدة والشعور بالإثم لمبارحته إياها ومغادرتها الحياة دون أن تكتحل عينها بمراه وتكون هذه الفاجعة فاصلا مهما بين عهدين من حياته فلزم بيته ومعرفته ، معرة النعمان لا يبارحهما مقررًا :

أراني في الثلاثة من سجونتي
فلا تسال عن الخبر النبئت
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسم الخبيث
وإذا كان أخوه أبو الهيثم عبد الواحد قد هجا بغداد عن قناعة أو بقصد استرداد أخيه وحثه على العودة إلى معرة النعمان، فإن المعري على الرغم مما واجه من تصرف لا يليق بالطرفين المرتضى والمعري فلا يليق بالمرتضى أن يأمر غلمانة ليسحبوا المعري وما كان المعري يستحق مثل هذا التصرف، كذلك ما كان جديرا بابي العلاء أن يستشهد بهذا البيت الإشكالي حمال الأوجه والقابل للتأويل، لكن ظل يحمل بين جوانحه حبا لها على الرغم من أنه قد أزمع عنها رحيلًا ليقول قصيدة طويلة جميلة مؤثرة ومعروفة :
كلفنا بالعراق ونحن شرح
فلم نلمم به إلا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء
وزرنا اشرف الشجر النخيل
وأبنا بالغيليل وما اشتقينا
وغاية كل شيء أن يزولا
تأملنا الزمان فما وجدنا
إلى طيب الحياة به سبيلا
لتلخص هذه الأبيات فلسفة المعري في الحياة (كل شيء في الحياة إلى زوال وليس إلى طيبها من سبيل إن كان فيها طيب)

قصر المدة التي عاشها فيها والتي لا تزيد على السنتين والتي كانت بدايتها حضوره لمجلس عزاء الشريف الطاهر والقاؤه قصيدة من غرر قصائده ارتجالا في رثاء الطاهر مما جلب انتباه ابنه الشريفين الرضي والمرتضى وهما ما هما عليه من أدب وثقافة وشعر فيذهبان إليه منسائلين: لعلك أبا العلاء المعري؟ وكانت شهرته قد تجاوزت المعرة وبلاد الشام نحو بغداد عاصمة العلم والأدب والشعر، فيكرمان وفادته، شاعت النهاية نهاية حياته في بغداد أن تكون كذلك. في مجلس الشريف المرتضى فيرد ذكر المتنبي فينقص المرتضى من قدره ولأن المعري لا يقبل التذليل والمدحجة يدافع عن المتنبي قائلا: لو لم يكن للمتنبي من فضل لكفاه فخرا قوله: لك يا منازل في القلوب منازل
فعدتها المرتضى تعريضا به فأمر به فسحب من المجلس مهانا لان ما استشهد

أضمرت قلبي باجتذابك ماجلا
كالسيف أعجب رونقا وغرارا
لكن أبا العلاء المعري لا ينكر فضل بغداد عليه كما أنكره المنكرون المجحدون بل يعترف بفضل البغداديين عليه قائلا (والله يحسن جزاء البغداديين فلقد وصفوني بما لا استحق وعرضوا عليّ أمو لهم عرض الجد فوجدوني غير جنل بالصفات ولا هش إلى معروف الأقوام) هو الزاهد بالحياة الذي لم يقبل عروض داعي الدعاة الفاطمي المادية يوم راسله هذا وألح عليه والحف، والمعري يدافعه محاولا اتقاء أذاه مما عجل في موته، أو كان سببا مباشرا ومهما فيه خاصة وان هذه المراسلات التي كان المعري راغبا فيها لأنه غير راغب في محاوررة هذا الدعوي المتحجر، جاءت وقد تعاورت عليه الأوجاع وتكالبت عليه السنون والعلل .
المعري المحب لمدينة بغداد بالرغم من

الروائي والقاص عبد الرحمن مجيد الربيعي ، فمن يقرأ رواياته وخاصة (الوكر) يجد فيها تصويرا مخالفا لواقع الحياة البغدادية ، مؤكدا صور الجنس والنسوة الرخيصات ، ويبقى الإنسان يمتح صورته من واقع حياته .
أبو الهيثم عبد الواحد اخو المعري يهجو بغداد طالبا من أخيه مبارحتها والعودة إلى معرة النعمان في قصيدة مطولة نقل منها العديم في كتابه (الإنصاف) أربعة وثلاثين بيتا كما تقول الباحثة الكبيرة عائشة عبد الرحمن (بنيت الشاطئي) في كتابها الممتع (أبو العلاء المعري) الصادر عام ١٩٦٥ ضمن سلسلة (أعلام العرب) .

بغداد لا سقت ربوعك ديمة
وغدت رياضك حنظلا ومرارا
أنت العروس يروق ظاهر أمرها
وتكن شيئا في اليقين وعارا

هناك مثابات في حياة الشخص والأفراد ، ومنعطفات مؤثرة في توجهاتهم الحياتية يستوي في ذلك الجميع سواء أكانوا من عامة الناس أم من خاصتهم ، ولقد كانت رحلة الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري ٣٩٣-٤٤٩ هـ إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية من المؤثرات الخطيرة في حياته، إذ كانت هذه الرحلة التي نافقت على السنتين فاصلا مهما بين عهدين أو توجهين في حياته فلقد اجمع مؤرخو الأدب على أنه غادر مكان سكنه وولادته ، معرة النعمان التي تقع بين حلب وحماة من بلاد الشام متوجها إلى بغداد أخريات سنة ٣٩٨ هـ ليصل إليها بداية عام ٣٩٩ وظل فيها حتى غادرها عام أربع مئة ، لست بيقين من رمضان . والمعري احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي الذي كان ينظر إلى المستقبل بما يشبه المتنبي ، هو الذي فقد نعمة البصر ليعوضه الخالق ببصيرة نافذة خارقة للحجب، كان يؤرخ لنفسه كي يمنع اللبس والإبهام وتقولات من يهرف بما لا يعرف. فهو من خلال رسائله إلى أهل معرة النعمان كان يضع النقاط على الحروف خشية الالتباس حينما يأتي من يترجم لحياته ويكتب عنها من المعاصرين والتالين. واجهت المعري في رحلته إلى بغداد بعض الحوادث التي جعلته يفكر مليا في جدوى البقاء في بغداد أم مبارحتها نحو مسقط الرأس ومهوى الأفتدة ، الوطن معرة النعمان ؟ فهو إذ وصل بغداد كانت المدينة تعيش تحت وطأة وفاة الشريف الرضي الطاهر أبي الشريف الرضي والشريف المرتضى وإن يقرر حضور مجلس الفتاحة يسمع ما يعكس صفو وجدانه وحياته مذكرا إياه بعاهته ، عاهة العمى لقد استكثر عليه بعضهم، ولا يعرفون من هو، استكثروا على أعمى لم يلبس فاخر الثياب أن يحضر مجلس عزاء شريف عزيز هو الطاهر فنبره بعاهته، لكن المعري رد الصاع مئة صاع ، قائلا : الكلب هو من لا يعرف للكلب سبعين اسما ردا على النابز القائل: إلى أين يا كلب؟

ويظل يحيا في بغداد يمضي أيامه بما يُقرأ عليه من كتب ومصنفات بيت الحكمة، لكنه يظل يرنو إلى معرة النعمان، خاصة بعدما ألح عليه أخوه بالعودة ومبارحة بغداد، وكتب قصيدة يهجو فيها بغداد ويصفها بأقذع النعوت والأوصاف ، ولقد لمست ذلك لدى العديد من الذين أوتهم بغداد وأعدقت عليهم الخير والشهرة والمجد، فلقد هجاها بدر شاكر السياب من الهجاء حاملا كل عقد الريف إزاءها واصفا إياها ب (الماخور) مع إنها منحتة الشهادة الجامعية والشهرة في عالم الأدب والسياسة والشعر خاصة، وكذلك أنكر فضلها



قف بالمعزة

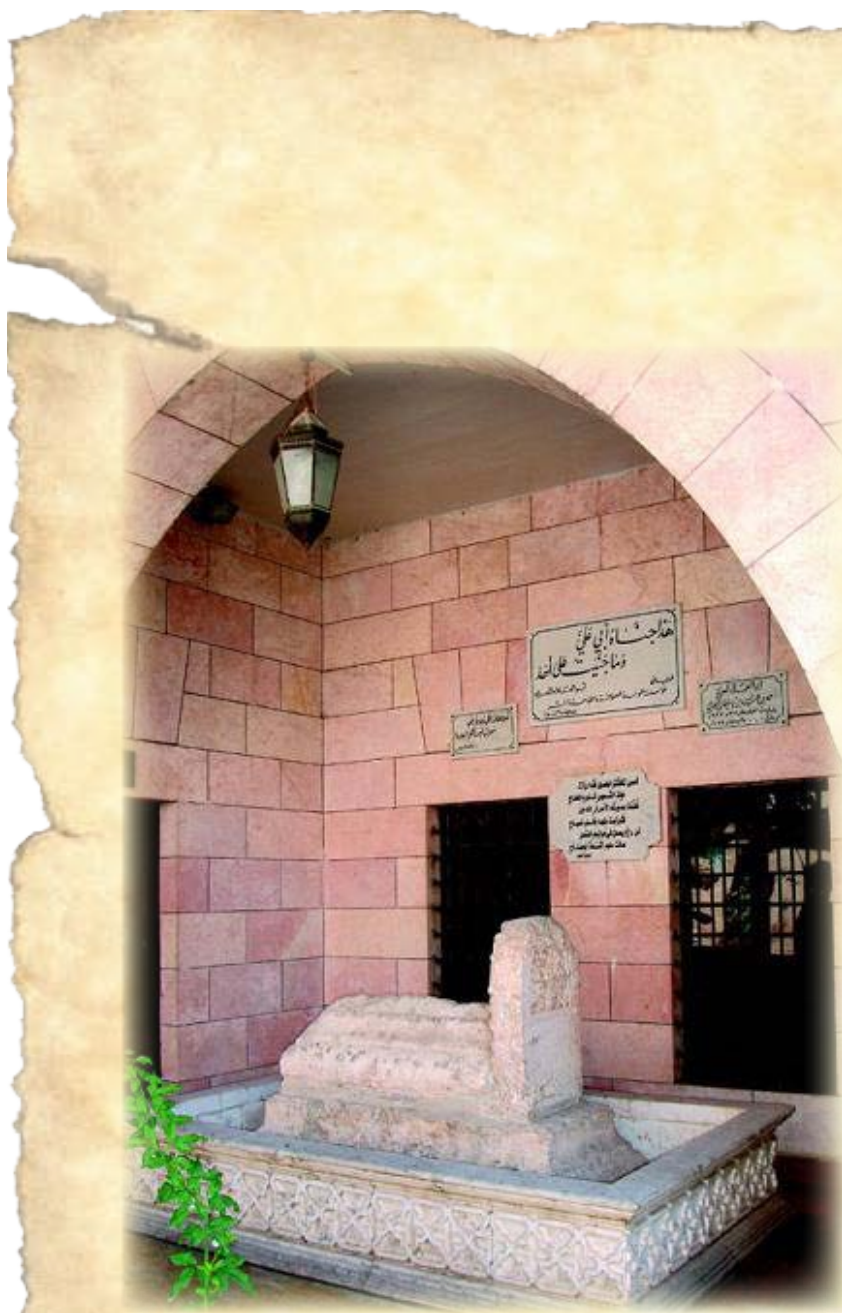
محمد مهدي الجواهري

وذنه .. ورفوف تحمل الكتب
شيخ أطل عليها مشفقاً خدياً
وشام مستقبلاً منها ومرتباً
أن تبصر الفيلسوف الحر مكتبياً
بالنقد لا يتأبى أية شجياً
أن يوسعوا العقل ميداناً ومضطرباً
وإن سقوا من جناه الويل والحرماً
بأن ألف مسيح دونها صلباً
والدهر .. لا رغباً يرجو ولا رهياً
ولا الطيور .. ولا أفرأخها الزغباً
وشج من كان ، أياً كان ، مغتصباً
أم أنت خجلي بما أرهقته نصياً؟
هذا الذي من عظيم مثله سلماً
لصاً ويرشد أفعى تنفث العطباً
فقد جنيت بما حملته العصبياً
ولا امتري ذرة منها ولا حلباً
يصد مبتعد منهن مقترباً
رحياً ، وأرهف منها جانباً وشباً
خفاقه ويذكره إذا انتسباً
شعافه وحبها معقلاً أشباً
من العظام إلى مهزولة عصبياً
فسد بالظلمة الثقيبين فاحتجياً
الآن فالتمسي من حكمه هرباً
يخشى على خاطر منه ولا حبياً
هذا البصير يرينا أية عجباً
رث المعالم ، هذا المرتع الخصباً
في عرسها غرر الأشعار .. لا الشهباً
وبين فحمتها من ألفة نسباً
بالجزع يخفق من ذكره مضطرباً
من المطايا ظمأ شراً شرباً
في الحسن بالليل يزجي نحوه العتياً
وناسجاً عضة أبراده القشياً
سوداء لا لذة تبغي ولا طرباً
وزر الذي لا يحس الحب ملتهباً
ولا يشق طريقاً في الهوى سرباً
بل لا يطيق حديث اللذة العذباً
سمحاً ، وألسن منهم جانباً رطباً
بالجور يأخذ من فوق ما وهباً
لدى العيون وعند الصدر محتسباً
حتى إذا استيقظوا كانوا هم اللعبا
وأضمرت شر ما قد أضمرت عقبا
فهل سوى أنهم كانوا له خطباً

على الحصير .. وكوز الماء يرفده
أقام بالضجة الدنيا وأقعدتها
بكى لأوجاع ماضيها وحاضرها
وللكآبة ألوان ، وأفجعها
تناول الرث من طبع ومصلح
والهم الناس كي يرضوا مغبتهم
وأن يمدوا به في كل مطرح
لثورة الفكر تاريخ يحدثنا
إن الذي أهب الأفلاك مقوله
لم ينس أن تشمل الأنعام رحمته
حنا على كل مغضوب فضمه
سل المقادير ، هل لازلت سادرة
وهل تعمدت أن أعطيت سائبة
هذا الضياء الذي يهدي لمكمنه
فإن نخرت بما عوضت من هبة
تلمس الحسن لم يمدد بمبصرة
ولا تناول من ألوانها صوراً
لكن بأوسع من آفاقها أمداً
بعاطف يتبني كل معتلج
وحاضن فرغ الأطياف أنزلها
رأس من العصب السامي على قفص
أهوى على كوة في وجهه قدر
وقال للعاطفات العاصفات به
الآن يشرب ما عتقت لا طفحاً
الآن قولني إذا استوحشت خافقه
هذا البصير يرينا بين مندرس
زنجية الليل تروي كيف قلدها
لعل بين العمى في ليل غربته
وساهر البرق والسماز يوقظهم
والفجر لو لم يلد بالصبح يشربه
والصبح ما زال مصفراً لمقرته
يا عارياً من نتاج الحب تكرمه
نعوا عليك - وأنت النور - فلسفة
وحملوك - وأنت النار لاهبة -
لا موجة الصدر بالتهديد تدفعه
ولا تدغدغ منه لذة حلماً
حاشاك ، إنك أذكي في الهوى نفساً
لا أكذبك إن الحب متهم
كم شيع الأدب المفجوع مختصراً
صرعى نشاوي بأن الخود لعبتهم
أرتهم خير ما في السحر من بدء
عائى لظى الحب " بشار " وعصبته

واستوح من طوق الدنيا بما وهباً
ومن على جرحها من روجه سكباً
هل تبني مطمعا أو ترتجي طلباً؟
أن لم تكوني لأبراج السما قطباً
لو أنه بشاع منك قد جذباً
كف الردى بحياة بعده سبياً؟
أم ما تزال كأمس تشتكي اللعبا
من حر رأيك يطوي بعدك الحقباً
ولا اجتواء ، ولا برء ، ولا وصياً
مما تفكرت أو حدثت أو كتباً؟
مما تشككت ، إن صدقاً وإن كذباً
صنأجه الشعر تهدي المترف الطرباً
رأس ليمسح من ذي نعمة ذنباً
تفرقت في ضلالات الهوى عصباً
بأن في فكرة قدسية لقباً
إما الخلود وإما المال والنشبا
وعظمتنا أن نصور العلم والأدبا

قف بالمعزة وامسح خدّها الترباً
واستوح من طبيب الدنيا بحكمتها
وسائل الحفرة المرموق جانبها
يا برج مفخرة الأجدات لا تهني
فكل نجم تمنى في قرارته
والملمة الحائر الجبار ، هل وصلت
وهل تبدلت روحاً غير لاغبة
وهل تخبرت أن لم يأل منطلق
أم أنت لا حبل تدري ، ولا مقه
وهل تصحج في عقبك مقترح
نور لنا ، إننا في أي مدلج
أبا العلاء ، وحتى اليوم ما برحت
يستنزل الفكر من عليا منازلها
وزمرة الأدب الكابي بزمرته
تصيد الجاة والألقاب ناسية
وأن للعبقري الفذ واحدة
من قبل ألف لو أنا نبتغي عظة



قبر المعري في بلدته معرة النعمان

١٠٠ (فلوس) السنة الثامنة العدد ١١٢١ رقم التلفون ٦٧٦٤

الرؤى المعري

مديرها ورئيس تحريرها محمد مهدي الجواهري
مديرها العام صالح أمين
مديرها الفني محمد مهدي الجواهري
مديرها الإداري محمد مهدي الجواهري
مديرها الفني محمد مهدي الجواهري

بغداد الخميس ٥ تشرين الأول ١٩٤٤ المصادف ١٧ صوال ٣

جوهرية الجواهري في مهرجان أبي العلاء المعري

لتفجيرة الفكر تاريخ يذكركنا

باتت لك مسيح دونها صلباً

التعبئة العامة التي ألقاها الشاعر الكبير الأديب محمد مهدي الجواهري صاحب هذه المفردة في مجلة الأندلس حركات أبي العلاء المعري يمشق:

قف بلبرة واسع عدداً التريا
واسترح من طيب الدنيا يحكته
وسائل الخيرة القرموق جانيها
يا برج مغفرة الأجداد لا تهنئي
فكسل نغم نغمي في قرانته
والهم المثار المثار هل وصلت
وهل تبدلت روكاً غير لأجته
وهل تحببت أن لم يأل منطلق
أم انت لا مطلقاً تدري ولا منة
وهل تصحح في غيبك مقترح
نور لنا في أي سدلج

أبى العلاء، وحسن اليوم ما برحت
يسألني الفكر من هذا منزله
ومرارة الأديب الكافي زمرة
تعبد المبدأ والآداب كدية
من قبل لك في أي بيتي حقة

على المعير وكوز الماء يردده
أقم البضاعة الدنيا والقدها
بكي لأوجع ما نسيها وطهرها
ولفكافة الوقت والجانبها
تأول الرث من طبع ومصطلح
والقم الناس كي برستوا مطيرها
ورثت يدوا به في كل مطرح
توردة المسطر كبرج يذكركنا

ان الذي الحب الأديب المذكور
في لباس ان لشمل الأديب وعنه
حنا على كل منسوب فضده

سل القلوب هل لا زالت ساهرة
وهل تمدت ان اضليت ساهرة
هذا الشيا الذي يهدى لكته
فلظرت بما عرفت من هرة

نفس الحسن لم يمدد بصيرة
ولا تأول من ألوانها صورا
لنسكن بلوسم من آفتابها لمد
بساطك بيني سكل مصلح
وسانن فرع الإطراف أرضها
مع المعري على كورة في وجهه قدر
وقل لطايفت المصانف به
الآن يشرب ما علق لا نطقاً

الآن قولي إذا استوحشت خافتة
هذا الصبح بريناً بين مندوس
زخية الليل تروي كيف قدعا
ليل بين المس في ليل غرشة
وساهم البرق والسيار يوقظهم
والبحر لم لم يذ بالصبح يشبهه
والصبح ما زال مصفراً لقرنه

يا عارفين أنتاج الحب تكربة
لنوا طوك وانت التور حقة
وعرفوك وانت التار لاجبة
لا لوجه الصدر بالهين تدهه
ولا تدفعك منه لفة حقا
حائك التناك في القوا لثما
لا اسكذبتك ان الحب منهم
كشع الأديب التبعج عذرا
عصرى تشارى بان الطود لثهم
ارتم غير ما في الشعر من بده
مالي لظي الحب يشتر وصيته
وهل سوى أنهم يسيروا وقد نذروا
هل كنت تظن ان ذابوا واذا نذروا
تأبى الغلاا رسلات مقنسة

يا حافر التبع مزهوا بقره
وشاحب الموت من هذا يسهمه
ومرح الموسر الطافي بيمته
والناج اذا تصدى رأس حلك
ومؤلاا الدعاء الساكفون على

الطابرون حياة حياة قد مسخروا
والطابرون بما ترضي مصلهم
ما كلفت أي حلال جانيا ابدأ
على الجلود من التدليس مفرده

اجبت فيك من اللوات خالدة
بجوهرة قد وجدناهم مفردة
فرب تاقب رأي حط فكرته
والثقت منع الدنيا فخره
بدا له الحق مراباً ظم ربه
وان صدقت فاي الناس مرتكب
هذا التراج شواظ الحق ارهفه
ورب راض من الحرمان قسمة

ارضى وان لم يشأ اطامح طالفة
وعوض الناس من ذل ومرة
جيش من المثل الدنيا يد به
آمنت ياش والتور الذي وصت
وصلت كل دعاء الحق من ربح
وقدمت لفتك لي على رشدي
لكنني جنأ عن وحي فلسفة
وان من حكمة ان يجني الرضا

أجلت فيك من الميزات خالدة
مجموعة قد وجدناهم مفردة
فرب تاقب رأي حط فكرته
وأثقلت متع الدنيا قوادمه
بدا له الحق عرباناً فلم يره
وان صدقت فما في الناس مرتكباً
هذا اليراع، شواظ الحق أرهفه
ورب راض من الحرمان قسمة

أرضى، وإن لم يشأ، أطمح طاغية
وعوض الناس عن ذلهم ومترية
جيش من المثل الدنيا يمد به
آمنت بالله والنور الذي رسمت
وصنت كل دعة الحق عن ربح
وقدمت شيعياً لي على رشدي
لكنني جنأ عن وحي فلسفة
وان من حكمة أن يجتني الرطباً

للحب ما لم يجب منهم وما وجبا
ترض من جماع النفس ما صعبا
جاءت تقوم هذا العالم الخربا
وناصراً في مجالي ضعفه الغربا
ومستمتاً لهذا ظلله الربحبا
أن يشرك المعسر الخاوي بما نهبا
بأي حق واجماع به اعتصبا
أوهامهم، صنماً يهدون القربا
ما سن شرع وما بالظفرة اكتسبا
ساعت لمحتطب مرعى ومحتطبيا
أطماعهم: بدع الأهواء والربيا
مؤولين عليها الجدد واللعبا
وفي العيون بريق يخطف الذهبا
هذا الشقاء الذي باسم الهدى جلبا
وقلت فيهم مقالاً صادقاً عجباً
مسالك الأمر: أي منهما نعباً

وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا
هل كنت تخذل إذ ذابوا وإذ غبروا ولم
تأبى انحلالاً رسالات مقدسة
يا حافر التبع مزهوا بقوته
وشاحب الموت من هذا بأسهمه
ومحرج الموسر الطاعي بنعمته
والناج إذ تتحدى رأس حامله
وهؤلاء الدعاة العاكفون على
الجابطون حياة الناس قد مسخروا
والفاتلون عثانيناً مهزاة
والملصقون بعرش الله ما نسجت
والحاكمون بما توحى مطامعهم
على الجلود من التدليس مدرعة
ما كان أي ضلال جانيا أبدا
أوسعتهم قارصات النقد لاذعة
صاح الغراب وصاح الشيخ فالتبست

حزبة الفكر والحرمان والغضبا
لدى سواك فما أغنيننا أربا
غنم فسف .. وغطى نورها فخبيا
فما ارتقى صعداً حتى أدنى صيبيا
ولاح مقتل ذي بغى فما ضربيا
مثل الأديب أعان الجور فارتكبيا
سيبياً . وخانغ رأي رده خشبيا
فبرر الصبر والحرمان والسغبيا
وحال دون سواد الشعب أن يثبيا
من القناعة كنزاً ما ثبجا ذهبيا
ذوو المواهب جيش القوة للجبيا
به الشرائع غراً منهجاً لجبيا
والمصلحين الهداة، العجم والغربيا
أما وجدت على الإسلام لي وأبيا
تقضي بأن البرايا صنت رتبيا
فرد بجهد ألوف تملك الكربيا



مهدي شاکر العبيدي

ثلاثة كتب تندرج في نطاق النثر، والنثر الممتاز، من الأنواع الأدبية في الأدب العربي، مما قرأته لحدّ التاريخ الجاري مهمورا بقلم معروف بن عبد الغني الملقب بالرصافي، واكتسابه لقبه هذا يعزى في حكاية مشهورة بين الأهالي ببغداد القديمة، يسردونها في أسماهم ومجالسهم بالأمس إلى أن أستاذهم محمود شكري الألوسي الذي تتلمذ عليه وتعلم على يديه مبادئ القراءة والكتابة، وأخذ عنه علوم القرآن واللغة والنحو، وأطلع على الشعر العربي، فأعجب بفضنته ونباهته وسرعة حفظه، وحصل ذات مرة أن استدل أثناء درسه واستغراقه في محاضراته باسم المتصوف الإسلامي المدفون بجانب الكرخ في مقبرة خاصة بعد أن حيا في العصر العباسي الأول وفارق الحياة بنهايته واسمه معروف الكرخي، ولقيت فصول حياته بمختلف أدوارها المتتابعة هوى واستئناساً من لدنه بسماعها كل مرة لدرجة استلقت نظر هذا المجتهد الديني الذي يتحلق حوله الطلاب والمريدون، يأتون به ليسترفدوا معرفته وإمامه بالأحكام الشرعية، فعن له أن يرضي عليه تسميته بـمعروف الرصافي على سبيل الاقتران والتشبه بالمتصوف القديم في جلسة لا تخلو من الاستغراق في الدعابة وتلطيف جانبه وإكرام شخصه .

أبو العلاء المعري بين معروف الرصافي وطه حسين

طبع كتاب (رسائل التعليقات) طبعة ثانية وألحق بها مساجلة دريني خشبة ومدخلته للشاعر المتفلسف إذا نظرنا للانشغال بوحدة الوجود على أنه من النظر العقلي اللصيق الصلة بالفلسفة، ومعها بالطبع جوابات المؤلف الذي تبدى فيها غير هياب وأنه على استعداد لمنازلة خصومه ومخالفه في أنظاره وتوصلاته، ومستنطداً بعد أن ثبت لديه بالدليل أن المداخلة خرجت عن نطاقها إلى الشتم المنكر والذم القبيح، يقول الرصافي: ((من الجائز شرعاً أن أقابل هذه الشتائم بمثلها، والحرمان قصاص، وليس الأستاذ بمعجز أن أقابل هذه الشتائم صاعاً بصاع، إن نقرأ فنثر، وشعراً فشعر، ولكن كما قلت أنفاً أكره النزال في حومة لا يخرج فيها الغالب إلا وهو ألزم من المغلوب)).

يغلب على رسالة معروف الرصافي (على باب سجن أبي العلاء)، مخالفته لعموم استنتاجات الدكتور طه حسين وتخريجاته واستنباطاته من تعليمات فيلسوف المعرفة التي توصل إليها وشامها للسلوك ومعاملة الناس بأدراع الحذر والاحتراز من كيدهم ومكرهم، فأوقعه ذلك في التشاؤم وورطه في اعتزال مجالسهم، مضيافاً إلى سجنه بفقد ناظره وكونه أعشى البصر - مما لا دخل له فيه أو هو خارج عن إرادته - سجننا نائياً بلزوم بيته وتواريه عن الخلائق، وكذلك نقض ما سطره من آراء وانطباعات بصيد (الزوميات) وأسلوب نسجها، وما تجشمه من نصب وإرهاق وحمل على نفسه في اختيار زويها الموافق لغرضها والوقوف عند قافيتها الملائمة التي قد

الرسالة هي الكتاب الثالث الذي انهمكت في مطالعته بطبعته الثانية الصادرة في عام ٢٠٠٣م، عن دار المدى بدمشق بالعدد (٢٩)، ضمن سلسلتها (الكتاب للجميع)، بعد نفاذ طبعة الأولى بمطبعة الرشيد في بغداد عام ١٩٤٦، ويتقدم كاتب ماثب ومنصف يدعى: محمد علي الزرقا .

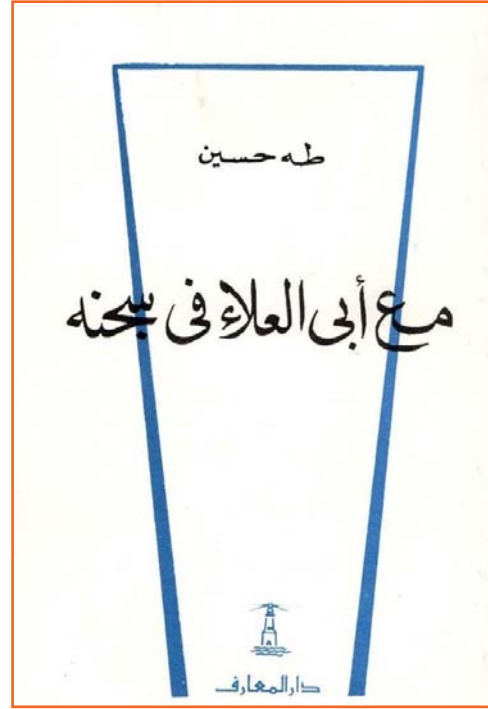
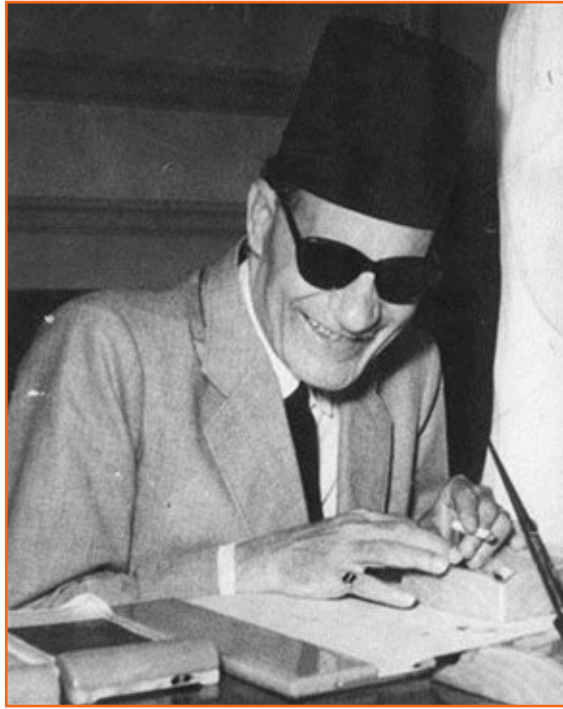
ولزجى النظر في هذا الكتاب أو هذه الرسالة، وتقييم سابقه مقدّمها إلى إنباه الشاعر ودور شعره في إنكفاء العزيمات، وتأجيج الوعي في أوساط الجمهور كي تصل من الكلام ما انقطع بصدد (رسائل التعليقات) التي استتبع فور صدورها عداوات ومخاصمات استهدفت بها مؤلفها أدباء من خارج البلاد كان أبرزهم دريني خشبة، الذي هجر بحثه وترجمته لملاحم اليونان وأساطيرهم ومسارحهم، وانصرف للتشكيك بعقيدة الرصافي الذي هو بالأصل رجل دين مغمم النفس والوجدان بالحفاظ والغيرة عليه، ويتصدى كل لدمغ من يفتنت عليه متطاولاً وتبكيته، ونشر دريني خشبة رده ونقصه لتخريجات الرصافي عبر مقالات متتابعة بمجلة (الرسالة) المصرية التي حُلت إبان ثلاثينيات القرن السالف خصوصاً بالكتابات المزدهرة بمحتوياتها الطائفة لأغلب كتّاب مصر والعالم العربي الأثبات، واستدعت من الرصافي نفسه أن يصاولها وينبزي لتفنيدها والإيماء لما تنطوي عليه من تغرض وتسايف وتخرض، جمعها من بعد مريد ثانٍ للرصافي، هو: الأستاذ عبد الحميد الرشودي، واحتفظ بها حتى عام ١٩٥٧م، وسلّمها إلى خادمه - عبد صالح - الذي أزمع السفر وقتها إلى بيروت

واعترف بإعارته بعض المؤلفات التي يقرأها ويتدارسها من مآثورات اللغة التركية، فقد قضى الرصافي وخرج من الدنيا بلا ثروة ولا مكتبة .

والسفر الثاني، هو: (رسائل التعليقات) الذي ترك دويماً في المحافل الأدبية والفكرية، وريم جراًه بالجوهر ومجافة الشريعة لقوله بوحدة الوجود وتستوي في منظور الرب المتصرف بمصير الأكوان وما فيها من الخلائق والموجودات، سائر الفضائل والردائل، والمحاسن والمسائى، بشتى صنوفها من الخير والشر والخطأ والضلال، والطهر والذنس، وأن المتصوفة هم أبعد عن الزهد وعياف الملذات، وأن محمداً كان قبلتهم وقدوهم التي يأتسون بها ويحتذونها في سلوكهم، وسوغ مثل هذا الكلام يحتاج عقليات ومدارك معينة خاصة لا تتوفر في محيط بمعن في انغلاقه وحجبه تفتح الأفكار والأذهان، وصدرت طبعته الأولى زمن الحرب العالمية الثانية بعناية الشاعر الراحل نعمان ماهر الكنعاني الذي اعتذر للقراء عن توانيه في إضافة رسالة إليها كتبها الرصافي بعنوان (على باب سجن أبي العلاء)، في مساجلة طه حسين ودحض ما سجله من وجهات نظر متباينة حول فلسفة المعري وموجبات عزلته واستنفاده جل أوقاته في صياغة أشعاره وسكبتها في قوالب مخصصة بأوزانها وقوا فيها أسماها النقاد والدارسون في أزمان تالية بعد أن تأملوا طريقته وتلمسوا آثار الجهد في تصيد رويها، أو قطعوا بجريها عفو خاطر في الأقل القليل منها، باتها من قبيل لزوم ما لا يلزم، وهذه

على قصده مكتبة المجمع وطلبه من إدارتها إحضار مخطوطة الرصافي تلك، ووضعها في متناوله حيث عكف على اجتلاء فصول وأقسام منها، ومحصها ودققها متحريراً أن يقع على موضع منها يحتوي على الخطب والضلال والحمق والشطط، ويستدل منه على مروقه وسوء فهمه، أو انتوائه الإساءة المقصودة والتزييف المتعمد، وتحريف الشواهد والوقائع، فما صح عنده إلا رأي مؤلفه في شخصية النبي المرسل من جهة كونه طاهر الذيل وعفيف النفس ومستقيم الأثر، وأنه - أي الرصافي - لا يجلب سواه ويتهيه أو يسوي بينهما بنفس القياس والدرجة، غير أنني بوغت بسيرورته مطبوعاً بدار نشر بألمانيا، وتواردت إلى (بسطيات) شارع المنبني ببغداد نسخ منه (معمولة) بطريقة الاستنساخ، ومعنتى بتجليدها وتغليظها والإبقاء على عين التصميم الخارجي على شاكلة يتخفى بها التقليد ولا يكاد يبين، ولعل هذا المشهد النقابي المتشم بالانفراج وانتفاء الحظر على كل مطبوع متوجس خيفة من أثره في الجماعة، هو من نواتج الاجتياح الأمريكي لربوع البلد وتعطل العمل بالقوانين التي لا تنكر تزمت بعضها وتحفظه أكثر من اللازم وخطأ تقديره للجائر وغير الجائر وعدم تمييزه بين النافع والضار في أحيان كثيرة، أما كيف انتهت المخطوطة إلى دار الجمل الألمانية فعلم ذلك غير مجهول إذا عرفنا أن من أصحابها واحد من أنجال المرحوم كامل الجادرجي وصلة هذا الأخير بالرصافي من الحميمية والوثاقة بحيث نعت به بالحيام، وشاد بأفضاله عليه في قوت اتح أسفاره،

فأما هذه الكتب الثلاثة التي انتهت إلي بفعل المصادفات وعلى غير المتوقع، لأن المشهور المتداول في الوسط الثقافي هو ديوان شعره المرصود في غالبية قصائده للقضايا الاجتماعية والسياسية، وقليل منها ينزع إلى تصوير عواطفه ومشاعر وجدانه جبال الظاهرات الكونية والوجودية ونحو خالنه وأودائه وبثه إياهم تذمره وسخطه على ما في الحياة من نقص واختلال في موازينها ومقاييسها، ولا يفقه ما أثر عنه من كتابات نثرية غير رهط قليل من الباحثين والدارسين، قلت: إن أسماء هذه المؤلفات البانخة الرصينة تتمثل في الأول: (الشخصية المحمدية)، الذي احتوته مكتبة المجمع العلمي العراقي مخطوطاً في فداير مدرسية عدة، ولا يعيره أمناء تلك المكتبة المتعاقبين لمبتغي الوقوف على آرائه بخصوص جهاد خاتم الأنبياء وخوضه معركة الطافرة في منازلة المشركين والانتصار عليهم، إلا بعد مراجعات واستحصال موافقات جهات ذات شأن ولها رأيها وكلمتها في تسيير شؤون المجمع، وذلك إشفاقاً وحرصاً على تماسك المجتمع وتجنباً له عن الانحلال والتفكك، لو تفتت بين أوساطه تجديفات معروف الرصافي ومفترياته وانتحاله المطاعن حول سيرة النبي الأكرم بين أهله وعشيرته وتعامله جبال زوجاته، على نحو ما اختلق من مسوغات ودواع للضن بإعارته إلا للقلّة من ذوي الحفاظ وأهل الثقة، وكذب هذا المزعم الأديب المعروف دنون أيوب عبر مقالة ضافية نشرها بمجلة (الثقافة) ذات يوم من سبعينيات القرن الماضي، أتى فيها



قلت: يرفض هذا الزعم بدعوى أنه أراد أن يتحدثواهم، برغم وقوعه في التكلف اللفظي أحياناً، أن يأتوا بمثل صنيعه، فتوخي التسلية هنا مرفوض في ملته، والانغماس في العبث معدوم ومحال أن يعن له ببال .

٧ . يغرق الرصافي في المتعارف بين أوساط البلغاء من تكرارهم أداء معانيهم المتوارثة والمشاركة بينهم مع طرود تحوير عليها وتحريف فيها بالزيادة أو النقصان في صوغ العاطفات والموجبات، ويستلقت نظره وتقديره لما ينجم عن التكرار في حالة جريه على وتيرة واحدة من سأم وملاحة، ويستثنى منه القرآن الكريم الذي بتأثيره في نفوس قارئيه وسامعيه مدين لهذا التكرار، وقد قاسمه في ذلك بعض الآثار المكتملة والمتوشحة برصانتها فلا تبتعث على السأم والملل نتيجة تكرار شيبات منها، فيخلص إلى القول بأن التكرار على إطلاقه غير صحيح؛ خلافاً لما يتبناه العميد من رأي حوله .

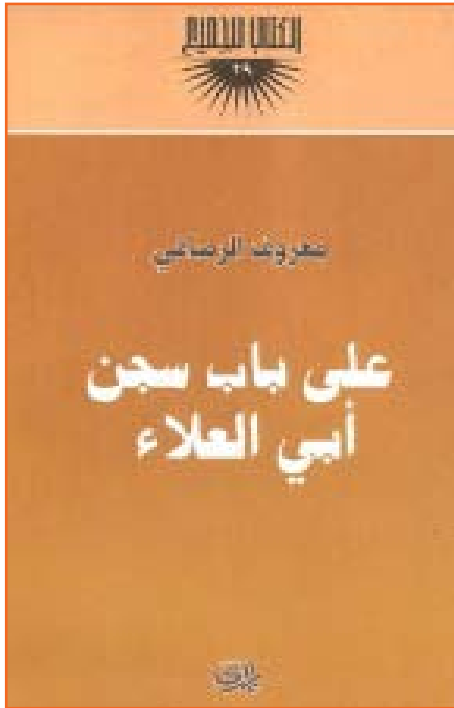
تخادع القارئ وتوهمه بكونها غير متكلّفة وجاءت لتحل محلها المناسب لا بحسب اعتماد الشاعر لها أو افتعالها أو اقحامها، وبالجملة إنّه يدحض جميع ما ورد في الكتاب ذاك وشحن به من أفكار ومُدعيات، غير عازف مطلقاً عن الثناء وامتناح مساعي طه حسين ودالاته الكثيرة على ازدهار الحياة العلمية والأدبية، ويعرب عن احترامه وانتفاعه بعلمه وإعجابه بأدبه، ويبلغ درجة من التصاغر بعد أن سخره طه حسين وخليه بتدقيقه ومحامته النصوص ونظيره فيها يامعان، فيقر بتطفله على موأثده لا غير، لكن دون أن يقلع عن محاجته الذكية له مرتكناً إلى أسانيده ودلائله، ومستنداً إلى براهينه وحججه الدامغة، ومتوسلاً لذلك بأسلوبه البارع وبيانه الرصين ولغته الموشحة بالرشاقة والطلاوة إلى حد يغري بسلكها في عداد النتاجات الأدبية المزهرة المعهودة في العقود الأوائل من القرن العشرين، حين نشط نبغاء الكتاب المصريين في ملء أنهار الصحف بموضوعات أدبهم وخطرات وجدانهم ومحصلات تفكيرهم، وتأملهم في أوضاع الحياة وطبيعة الاجتماع، أمثال: عباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومحمد حسين هيكل، وإسماعيل مظهر، وزكي مبارك، ومصطفى عبد الرزاق، وعبد الواحد خلاف، وغيرهم .

وقبل أن نجمل مؤاخذات الرصافي في رسالته على طه حسين وسدّه بوجهه جميع المخارج والناقد والأبواب ليستمسك بنظراته ويصير على اجتهداده، دعونا نقف بعض الوقت عند مقدمتها التي أبقيتها الجهة الناشرة على حالها دون أن تعدوها إلى التعريف بكنه هذا الموغل ببحث مدرسي عن شاعره الأثير وجهاده لخالص أمته العربية من العسف العثماني وجور الحكومات في كل بلد منها، ظفر بجلاء الغاصب المحتل عن ربوعه .

هذه هي باقتضاب واختصار وإجمال بعض دلائل الرصافي على خطالة رأي طه حسين في تقييمه لوضع أبي العلاء في سجنه، وبعبارة أخرى: إنّه يرفض تحريجاته، بل لا يقبل الكتاب أصلاً، لولا أنه يتوسل لبغيته بأدب جم ودماعة ملحوظة وحرصانة خلقية .

ويُحِق الرصافي بكتابه هذا مقالة جيّدة الإنشاء مكتملة الأسباب والعناصر مستوفية الشروط وخصائص المقالة التي ينوي كاتبها - أي كاتب - التعقيب على ما أتخم به من آراء وتضمّنه من خطرات مؤلّف ثانٍ لأبي العلاء، هو: (الفصول والغايات)، الذي زعم غير واحد من الكتبة أنه ما كتب وما أُلّف إلا لغرض معارضة القرآن الكريم في رصف ألفاظه وتنميق عباراته، وشك الرصافي في ذلك، مستبعداً انبراه المضاهاة القرآن المجيد ذي اللغة الأسرة والتعبير المحكم والصياغة المتفنتة والأداء المتناهي في السحر والبهر والإعجاز، علماً أنه توفّر على تنسيقه وتأليفه مع (اللزوميات) بعد أوبته من بغداد التي هجرها متذمراً وساخطاً مستاءً من أطباع بعض الناس فيها، مع أنه لم يخالف غير أضرابه من الفضلاء ومن على شاكلته ممن يعرفون في تعاملهم مع الآخرين إلا وندمة .

ليستعرض بالتالي وقفة على موروث لأبي العلاء من مآثور الأدب الرفيع والحكمة العالية، وقفا رجل أرمني محب ومشغوف بالفلسفة العائلية، هيمان بفته الرائع وسيرته المتفردة، يدعى: (أويديك إسهاقيان) - المولود بأرمينيا سنة ١٨٧٥م - الذي سباح في بلاد الغرب واحتفل به مواطنوه لبلوغه الستين من العمر، وذلك بمدينة (أروان) عاصمة الجمهورية الأرمينية، بعد أن صاغ ملحمة الشعرية (عروج أبي العلاء) باللغة الأرمينية، والتي نقلها إلى عربيّنا أديب سوري، هو: خير الدين الأسدي، بمعاونة أرمني آخر، هو: (بارسيخ تشنويان)، وهذه الملحمة تشتمل تعرية وتقريعاً لزماننا وكل زمن تستشري فيه مظالم الأقيواء واستبدادهم بالضعفاء، ويختل القياس فيتوارى أصحاب العقل ويكتفون في عزلتهم مؤثرين صون ذواتهم من العنت والتوقع والتساقف .



المتنعة وطلاوته المحببة .

٥ . اجتهد العميد بزعمه أن أبا العلاء ابتغى استشارة إعجاب الناس بتصرّفه باللغة وتطويرها لما يروم الإفصاح عنه وإبلاغه من خطرات، ممزجاً ذلك برغبته في تسلية نفسه والتفريج عن كربته وغمومه وإظلام حياته من خلال معاناته العذاب والرهق، وإكراه الآخرين بالتالي على الاعتراف بتفوقه وتمييزه وتمحيضه إكبارهم؛ وقد حاول الرصافي جاهداً أن يثبت خطأ هذا الاقتراض، على أساس أن صاحب قصائد (اللزوميات) إنسان متجرد من كل مطعم ومأمل حتى في الشهرة التي يصبو إليها كل صاحب قلم في كل زمان .

٦ . أستطيع استخلاص فائدة وجدوى من تعقب طه حسين في ما خاله وحسبه هينات وزلات في وصمه أبا العلاء واستكثاره عليه إمعانه في العبث وارتجائه تسلية نفسه وملء فراغ أوقاته والهروب من مشكلاته والتهوين من ضغط ظروفه؛ ويدحض الرصافي هذه الفرضية بعد أن يسجل للمعري سبقه الأقران في حلبة البيان،

بها من قبل ناظمها لإفحام أنداده ومجادلتهم بكونه أحفظ لشوارد اللغة وأعلم بأسرارها ووجوه استعمالها، وأنهم لا يدانونه في ملكته البيانية ولا يقاربون شأوه .

٣ . يقول طه حسين بأن فيلسوف المعرفة كان يجهد نفسه في إيجاد مفرداته، ويتعب في رصفها وسبكها، ويشق على نفسه في ذلك؛ ويقول الرصافي بأن في سعة حفظه وقوة ذاكرته وغازرة علمه ما يسعفه وقت ما يشاء لاستخدامه في صنعته الأدبية من الألفاظ اللغوية، فليس ثمة نصب يتحمّله ومشقة يعنو لها؛ فأنت ترى أن الغامز الرصافية حيال العميد المتمرس بأداب البحث من الخفاء والدقة، بحيث تستعصي ملاحظتها وتحديدها والإمسك بها .

٤ . يحسب الدكتور طه حسين أن الجيد من شعر (اللزوميات) قليل؛ بينما يعتقد الرصافي أن أكثر من نصفها تمتلك الألفاظ الأسماع بفصاحتها ومعانيه النفوس ببلاغتها، وإن إغفال ناظمها بصناعته اللفظية لا يؤخذ بالحسبان، فأرجح الظن أنه ورد عفواً ويقبله الذوق لسهولته

مقدّرات الشعب بتدريّ وضعه المعيشي، وينكصوا عن المجاهرة بافتقاده القوة الدافعة لإنعاش حياته الأوهي الحرة .

أما بصد ما بين فيه الرصافي وناقض طه حسين في آرائه التي يدّين نحوها بالاحترام الذي لم يصرفه عن تحريّ الحقيقة وابتغاء الصواب، فهي كالآتي:

١ . يخال الرصافي أن أبا العلاء المعري هو أول من تعمد التزام ما لا يلزم في الشعر؛ ولا عبرة بقول طه حسين بكونه مسبقاً بمحاولات غيره من الشعراء وتجريب قابليتهم وتمكنهم من نسجه وفق هذا المنوال بأن يجيء كل بيت من القصيدة مبنياً على قافيته، بل جاءت قافيته مبنية عليه، وما حصل من إطلاع (كثير عزة) بشواهد التي لوح بها للتدليل على إلزام نفسه بهذا القيد وترسّمه، إنّما جاء عفواً واتفاقاً .

٢ . يرى عميد الأدب العربي أن (اللزوميات) عمل توخى منه رهين المحسبين ملء أوقات فراغه، وهي نتيجة العبث واللعب بالألفاظ لا الكد والجهد؛ ويظنّها الرصافي مستعانة

البياتي ومحنة أبي العلاء المعري

الدكتور حسن الخاقاني

حركات النص ، حتى ليصير البيت معه مقبرة هي رمز للعالم الإنساني اجمع :

في حفرة موتي
في وحشة بيتي
كان النمل يروح ويغدو
مثل بناء الأهرامات
ليجمع من كسر الخبز طعاماً
لشئاء قاس
اعلام ليبي وحشته اقتربت
يتهاشم في لغة اعرفها
في بيت الاموات
الأسود والأحمر لصان
سرقا مني (الغفران)

يمثل البيت العالم الاصغر الذي يعيش فيه ابو العلاء ، ثم يتسع ليشمل كل ما يحيط به من العالم ، لكنه لا يكتفي بهذا حتى ينشر رؤيته للموت وقد امتدت في المكان والزمان البعيدين ، او التاريخ بكل ابعاده ، بتحريك قوة رمز (الأحمر) :

من صحراء الربع الخالي
حتى تدمر

اجدادي تركوا خيط دم
واكتشفوا البعد الخامس للموت

وروح الليل
ولا تسكاد تجدي فورة الرفض وقد حاصره الاسود
والاحمر ، فهي لاتعدو ان تكون اسئلة يائسة يغلبها اليقين بالموت :

قانون ازلي ام ماذا؟

موتي في كل مكان
وقبور يتصاعد منها الهذيان
من يشعل ناراً

في هذا الليل الموحش
من يصرخ في غرف الدار

فلتطلقني يا ابتي من قفصي
فسجوني كثرت

وعذابي طال

يتحول هذا السؤال الى استسلام عندما يتراجع بين يدي يقين الموت القادم، لكنه سؤال الغربة والقلق :

ما بين الوردة والسكين

روحي قطرة ضوء تخبو

وانا اخبو معها

سمنوت كلانا في هذا المنفى الملعون

فلماذا يا ابتي

أنجبت حصاناً عجرياً اعمى

لايعرف في هذا الصقع الشاسع

اين يموت؟

لقد تحول المنفى - الملكوت الى : المنفى الملعون ليحدث القطيعة مع امل الحياة وليغلب الموت عليها ، وهذا امر يرجع الى البياتي بعد ان جعل ابا العلاء الوسيلة

لذلك ، وهو ما يظهر ابا العلاء رمزاً مختلفاً في النصين ، ان غلب الاندفاع في الحياة ، والمقاومة والرفض ،

والوقوف بوجه اجماع المجتمع على النص الاول ، فكان نصاً متفائلاً في نهايته ، مستنداً الى ما ابداه من هجاء

لعصره ليتفوق عليه ، اما في هذا النص ، فقد بدا ابو العلاء فاقد القدرة على المقاومة والرفض برغم احتفاظه

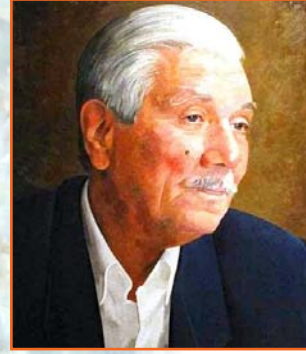
ببصيرته الحية التي ارتته الحقيقة لكنه لم يستطع الاندفاع في اقرارها ، فقد وهنت قواه ، وهي قوي

البياتي في حقيقة امرها ، لذا استكان الى الموت موقناً ، مستسلماً ، وقد خالطه شعور الغربة والموت فيها ان

لا امل له في سواها ، وقد كان الامر كذلك حقاً ، وهنا نلاحظ ، بعد ان راينا في رمز الصلاح ، ان الرمز لا ينمو

ولا يتحول ، بل يتغير تغيراً نوعياً في كل نص وفي كل مرحلة ليدلنا على ان الشاعر لم يكن يعي حياة الرمز بل

كان يستعمله كما يستعمل أي أداة او اية وسيلة ليس لها نوع او شخصية وهذا يدلنا عليه متابعة الرمز الواحد في نصوصه .



امتحن ابو العلاء بالعمى صغيراً فأثر فيه كبيراً، وبدا على شعره وفكره ، لكن قصيدة (محنة ابي العلاء) ()

لاتدور حول محنة عماء ، بل دارت حول محنة اخرى هي مقارعة رموز عصره ، اما عماء فينزوي ليلبي حاجات للنص مثل استحضار العصر الماضي ورموزه .

يقدم المقطع الاول منذ عنوانه (فارس النحاس) رموز العصر التي تجتمع حول دلالة الموت المعنوي :

هذا بلا امس وهذا غده قيثارة خرساء
داعبتها ، فانقطعت اوتارها ولاذ
بالصهباء

وذا بلا وجه ، بلا مدينة ، وذا بلا قناع
اشعل في الهشيم ناراً وانتهى الصراع
وذا بلا شرع

اجر حول بيته وعاد

حياته رماد

وليله سهاد

ياموت! يا نعاس!

لوركا ونور العالم الابيض في الاكفان

فقد ازدهمت نماذج تمثل الموت ، أي الانقطاع عن ممارسة الحياة المبتغاة ، ان ظهرت ملامح سندياد العاجز ، وظهر

لوركا رمز الموت المتكرر ، وصولاً الى الرمز الاسطوري الذي يمثل الموت :

وفارس النحاس

في ساحة المدينة

تجلده الرياح

تنوشه الرماح

يجمع المقطع الثاني (العباءة والخنجر) التفيضين ، ويرقب ما ينتج عن اجتماعهما ، وذلك هو اجتماع الشاعر

- الصوت النقي - بالامير رمز الاستبداد والدينس : شربت من خمر الامير ، ورأيت في نهار ليله النجوم

اكلت من طعامه المسموم

اصبت بالتخمة والحمى وبالضجر

اصبحت في بلاطه حجر

ليلا بلا سحر

قيثارة مقطوعة الوتر

عباءة بالية ، مسمار

صفرا يدور في الفراغ ، الة تدار

وهذا يشبه ما حصل للحلاج في نص سابق حيث العلاقة الازلية : الاستبداد يلغي الآخر ، ويطويعه لمصلحته.

يقدم المقطع الثالث رمزاً اخر من رموز الموت هو (المغني) في علاقة مختلة بالامير ، فيكون مصيره الموت

ان تنبأ بمستقبل الامير ، ويقدم الموت بصورة ايجابية مستخلصة من مجموع الافعال الدالة عليه :

فانفض الامير ثم ضحكا

وقال للجلاذ شيئاً وبكى

فاصطفتت واغلت ابواب

وانقلبت انية الطعام والشراب

وسكت القيثار

وانطفاً القنديل ثم اسدل الستار

والنموذج الاخر للموت يقدمه المقطع الرابع ، حيث الضحية هو (الشاعر) في علاقته المختلة بالامير ايضا ،

وحيث الحاشية المناقفة التي يزدحم بها مجلس الامير الذي يذكر بذلك المجلس الذي اردى المتنبي في نص سابق :

مجلسه كان يعج بدواب الارض والهوام

من كل صعلوك شويعر ، دعي ، داعر نمام

كان - اذا ما انشدوا اشعارهم - ينام

مفلطحاً ومتخماً

وكلما

انشد منهم احد تملما

وقال لا!

- مولاي ، هل يخفي القمر؟

ويغضب الامير

ويصفع الشاعر ، فالقمر

يغيب كل ليلية في صفحة الغدير

يبقى ابو العلاء وحده ، متميزاً من كل هذا الزحام حين

يتجه اليه الخطاب فجأة هاجباً ذلك العصر ورموزه :

كان زماناً داعراً ، يا سيدي كان بلا ضفاف

الشعراء غرقوا فيه وما كانوا سوى خراف

وكنت انت بينهم عراف

وكنت في مأدبة اللئام

شاهد عصر ساده الظلام

يطول النص ، لاهتمامه بهجاء العصر ورموزه ، وهي رموز تتكرر : كالضفاد والامير ، والحاشية المناقفة ،

وقد اصبحت هذه من الثوابت التي يكرر البياتي ذكرها في النصوص التي تعالج قضايا متشابهة من حيث

الغاية كعذاب الحلاج وموت المتنبي ، لتنتهي بانتصار الضحية ، او الامل في انتصارها في المستقبل ، او بعد

الف سنة ، وهو امل يرجع الى ايمان البياتي بحتمية انتصار الحياة مهما طال صراعها مع الموت ، ومهما

كانت رموز الموت قوية ، لكن هذا الامر كان مرتبطاً بمعطيات المرحلة التي كتبت فيها تلك النصوص ، وهي

معطيات اصابتها التغيير الجزري بعد عقود من السنين ، فتغير معها ايمان البياتي ايضا ، ولم يصمد لفروض

الزمن الجديد. ان يظهر نص متأخر هو : (سجون ابي العلاء) () وقوع البياتي تحت هيمنة الموت ، وقد دنا منه

كثيراً ، ليفقد ابو العلاء ، كل قدرة على الرفض والمقاومة ، او التمسك بفكرة : (ان الارض تدور) التي كانت رمز

انتصاره في النص السابق ، فيؤول في هذا النص الى التسليم بسطوة عدوه عليه ، ويكون سجين ذاته قبل ان

يكون سجين عماء ، ولتكثر عليه السجون لتكون جزءاً من عنوان النص :

الاحمر والاسود

لصان اختبأ

في اكواخ الطين

وفي قصب النهار

انهكتني هذا الزمن الدائر

في اجراس الماء

من يروي جسدي

لأطوف به حول الكعبة

أدفنه في جبل (التوياد)

فلعل نسور الفجر الدامي

تأكله

وتبقى بعض عظامي

طلسماً لطفولة اعمى

ضئع في باب الله

سحر الالوان

يمكن ان يكون (الأسود) دالاً على (العمى) لكن ابا العلاء تجاوز لون عماء ليحتفي بالبصيرة التي يفتقدها غيره ، فهو بها يبصر غير ما يبصره سواه :

في ليل معرة اجدادي

ولدنتي امي اعمى

كنت اري من بين اصابعها

سفننا ترجل نحو كواكب اخرى

ولصوا يحكم بعض منهم بغداد

وممالك اخرى

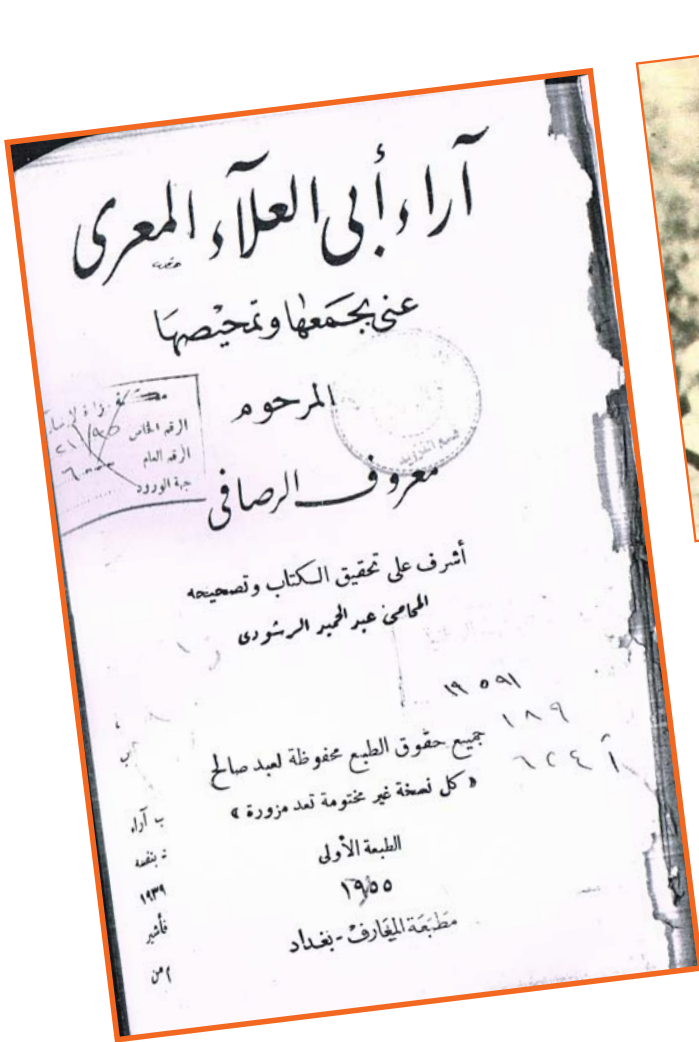
ماتت قبل ولادتها

كنت اري امي شاحبة

في الفجر تصلي

وتنادي اشباح الموتى في غرف الدار

فلقد احاط الموت بالبصر والبصيرة ، وغمر وجوده



في اوائل القرن الخامس للهجرة اي قبل تسعة قرون تقريبا كان في معرة النعمان رجل عربي المحتد يسمى احمد بن سليمان، ويلقب بأبي العلاء. كان هذا الرجل كفيف البصر، ورعا زاهدا في الدنيا، مبتعدا عن الناس، ملازما لبيته منقشفا في المطعم والملبس، تاركا لجميع الملاذ الجسمانية حتى لقد مكث خمسا واربعين سنة لم ياكل اللحم تريبا وتزهدا، ولم يتزوج طول حياته. وكان مع ذلك على جانب عظيم من الذكاء، وقوة الحفظ، شاعرا، لغويا، متضلعا من فنون الأدب له تصانيف كثيرة ورسائل ماثورة.

معروف الرصافي

المعري شاعر البشر



رويدك ايها القارئ، لا تعجب لهذه الصفات التي وصفنا بها صاحبنا، إذ ليس من العجب من رجل كفيف البصر كأبي العلاء ان يكون زاهدا في دنياه، تاركا جميع لذاتها ولا ان يكون ذكيا، شاعرا، لغويا، متضلعا في فنون الأدب فان له في ذلك نظرا، من الناس في كل زمان ومكان، ولكن العجيب جد العجيب هو ان

يفتكر هذا الشاعر في امور لم يفكر في مثلها اهل الوسط الذي نشأ فيه فياتي بأراء لم يسبقه اليها احد من ابناء جيله. كذلك كان ابو العلاء إذ نبت امة وحده فتشا حر الفكر في جيل مقيد الأفكار، ومطلق النظر في رهط اسير للعبادات، فباح باسرار انار بها الافكار وجاء باقوال نغم بها على البشر جميع ما هم فيه من عادات متبعة، وتقاليد موروثه، وديانات مختلة، وعبادات معتلة، واحكام جائرة، واخلاق فاسدة، وحكومات مستبدة الى غير ذلك من الامور. لقد قلت مرة في ابي العلاء: إنه شاعر البشر. اما الآن فاقول: إنه شاعر الخلق كافة، إذ لم تكن نظراته الحكيمه مقصورة على بني آدم بل تجاوزتهم الى غيرهم من سايح في الماء، وطائر في الهواء، ونابت في الارض وطالع في السماء، وهذه لزومياته طافحة بالشواهد على ما اقول. فما اجدره بان يدعى شاعر

الخلق، او شاعر الدنيا والاخرة.

اختلف الناس في هذا الرجل الفذ، فمن طاعن عليه، ومن داند عنه. فالفريق الأول عزاه الى الكفر وجعله من الزنادقة، والفريق الثاني نسبه الى الايمان وجعله من الاولياء اولى الكرامات. فاما الفريق الأول فليسوا بصائريه لانهم اذا جعلوا قائل الحق زنديقا فالزندقة لا تنقص شيئا من قدر ابي العلاء، وقد قال هو: لحي الله قوما إذا جئتهم بصدق الاحاديث قالوا: كفر واما الفريق الثاني فليسوا بعارفيه. لأنه هو الذي ينكر عليهم ذلك قبل الطعانين عليه. وليس كونه كما قالوا بزائده قدرا على قدره الجليل.

اما نحن فبيننا وبين ابي العلاء عصور

واجيال، فاذا اردنا ان نعرف جليلة امره فليس فيما يهدينا اليها شيء اصدق من آثاره التي بقيت بعده بين ايدينا الى يومنا هذا، واشهر تلك الآثار ديوانه المسمى باللزوميات، فهو كتابه الوحيد الذي نطق فيه بالحقيقة المنظومة، وودعه حكمه الناصعة، وفلسفته الرائعة فما لنا ولأخبار الرواة، ونحن نرى ابا العلاء بكتابه هذا حيا مقيما بين ظهرانينا، فلنسأله عن نفسه فانه يجيبنا جوابا شافيا بصراحة ما فوقها صراحة.

كنت قبل هذا نظرت في اللزوميات بمنظار الصناعة الشعرية فالتقيت منها زهاء ستمائة بيت كلها غرر، ولم انظر اليها عند انتقائها إلا من جهة الصناعة بقطع النظر عن الموضوع، ثم جمعتها في كراسة وسميتها "الزم الألزم من لزوم ما لا يلزم" فبتلك الكراسة المنتقاة تتجلى للقارئ شاعرية المعري وحكمته معا. غير انها لا يتضح بها مذهبه ولا تعرف منها اراؤه وضوح تام لأنني تركتها كما هي في الاصل مبعثرة غير مرتبة. وذلك ان كتاب اللزوميات اذا نظرت فيه رأيت تنظيمه منثورا، فهو مختلط الابيات غير متماسكها، حيث تجد في الغالب كل بيت منه قائما بنفسه من جهة المعنى واللفظ غير مرتبط بما قبله ولا بما بعده. ففي الصفحة الواحدة منه تراه يتكلم في مواضيع شتى فنقرأ منه البيت في السماء، والذي يليه في الارض، والاخر مما يليه في الحيوان، وما

بعده في شيء آخر، وهكذا الى آخره. ويندر ان ترى بيتين او ثلاثة ابيات منه متواليات في موضوع واحد، ومرتبطات المعاني بعضها ببعض وسبب ذلك انه لم يلزم في القوافي فاضطرته هذه الصناعة اللفظية عند نظم كل بيت الى ان يفكر في قافيته قبل نظمه. وذلك يقتضي في الغالب ان يكون المعنى تابعا للقافية، ومبني عليها فيأتي البيت منقطعاً عما قبله، وتكون القافية في كل بيت هي العامل الوحيد في تعيين موضوعه الخاص كما لا يخفي على كل من مارس صناعة قرض الشعر من الناس. ولما كان شعر اللزوميات كله على هذا النحو غير محبوب، ولا مفصل بحسب مواضعه صعب للقارئ ان يحيط بآراء ناطقه الفيلسوفين ومذاهبه الاجتماعية إلا بعد تمحيصه، وجمع متفرقاته، ورد كل بيت منه الى قرينه، وتنقيح متناقضاته التي كان ابو العلاء يتعمدها مراعاة لأهل زمانه، وردا للتمه عنه، واتقاء شر الجاهلين المتعصبين، فبعد ذلك تتجلى غيايب الغموض عن آرائه، وتظهر للعيان مذاهبه ومناحيه.

وقد اخذت على نفسي، بعد انتقاء "الزم الألزم من لزوم ما لا يلزم" ان امحص للقراء هذا الكتاب الجليل لكي تظهر لهم اراه صاحبه، ويقربوا من تناول فرائده، واقتطاف فوائده، ولم اقص بذلك إلا خدمة الحقيقة، ومزيد التنويه بصاحبه الذي هو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، وقد التزمت الا اتكلم عنه بشيء بل اترك الكلام له فيتكلم هو عن نفسه، ويعرب عن آرائه ولا يظن القارئ اني معه في كل ما قال، بل في آرائه مالا اوافقه عليه كآرائه في مسألة الحجاب، وانما انا حاك عنه بل هو الحاكي

عن نفسه لا غير. وربما انكر على هذا العمل بعض اسرى التقليد من الجامدين، ولكن خذ عنك ايها القارئ الكريم ! فلعمري ان قوما يكونون من ضيق العقل بحيث لا يحتلمون الاصغاء الى ما قاله ابو العلاء، ولو غير موافقيه على ما قال، لجديرون بالزوال، لانهم بعيدون عن الكمال، واني لانزه ابناء هذا العصر عن ان يكونوا من جمود الفكر في هذه الدرقة السفلى.

ونحن إذا نظرنا في المواضيع التي خاض ابو العلاء عباها في كتاب اللزوميات وجدناها كثيرة غير ان المهم منها ينحصر في المسائل الآتية:

- ١- الإله ٢- الأديان ٣- العبادات ٤- نسخ الشرائع ٥- أهل الأديان ٦- الصوفية ٧- القائم المنتظر ٨- العقل ٩- الموت والحياة ١٠- الروح والجسد ١١- ما بعد الموت ١٢- الشك واليقين ١٣- البعث والنشور ١٤- الجزاء ١٥- زوال العالم ١٦- حكمة خلق الخلق ١٧- الجبر ١٨- الاقدار ١٩- الجد والحد ٢٠- الخير والشر ٢١- الدنيا ٢٢- الغرائز ٢٣- الناس ٢٤- العزلة ٢٥- النساء ٢٦- الحجاب ٢٧- الزواج ٢٨- تعدد الزوجات ٢٩- النسل ٣٠- اختلاط الانساب ٣١- السياسة ٣٢- الحرب ٣٣- الرفق بالحيوان ٣٤- الجن ٣٥- الخرافات ٣٦- الخمر ٣٧- الفلسفيات.

وها نحن نقص عليك آراء ابي العلاء في هذه المسائل واحدة بعد اخرى على الترتيب المذكور

مقال نشر في ٢٧ نيسان ١٩٢٤



كانت الندوة هذا الأسبوع متميزة في النادي العربي بلندن بإدارة الإعلامية المغربية فاطمة الحسن حيث تحدثت فاطمة عن حياة المعري باختصار، ثم تعريف بالضيف الباحث نبيل الحيدري. ثم الكلمة للأستاذ نبيل الحيدري عن فيلسوف المعرة خلال فترة إقامته ببغداد وأثرها الكبير عليه، ثم كانت الأسئلة والمدخلات والملاحظات متميزة لحضور كثير من حيث النوعية والكمية ودام لأكثر من ساعتين حوار علمي بين الحضور والمحاضر.

نبيل الحيدري

فيلسوف المعرة في بغداد

ملخص المحاضرة:

كانت بغداد مدينة العلم ودار الخلافة وحاضرة الإسلام ومركز الحضارة وتلاقح الفكر وملتقى الأشراف والتجار والأدباء والمتقنين... إن زحم الناس على بغداد من كل أطراف الدنيا وسميت (دار السلام) حيث يقصدها الشعراء والأدباء والعلماء في شتى الفنون والمعارف والأدب... كانت بغداد كعبة العلم والأدب فيها ماء عذب وظل ظليل وعلم جم وأدب نزي وكل ما تشتهيته الأنفس... يصفها طه حسين (كانت بغداد كباريس اليوم فلانري في العالم الإسلامي شابا أتم الدرس في بلده إلا وهو يتحرق شوقاً إلى الرحلة إلى بغداد ودراسة العلم فيها من أصفي موارده وأعذب مناهله...) وكانت بغداد مقصد صيادي الثروات من المرتزقين بالشعر عند ابواب الخلفاء

والامراء ولكن المعري كان عفا النفس زاهدا لم يرتزق بشعره، ولقد رد شعرا على من غمزه بمظنة السؤال قائلا: أنبئكم أني على العهد سالم... ووجهي لما يبتذل بسؤال وأنني تيممت العراق لغير ما... تيممه غيلان عند بلال أبو العلاء المعري كان يحب بغداد كثيرا وقد دعاه البغداديون إلىها، بعد أن ظلمه أمير حلب حتى كتب (والله يحسن جزاء البغداديين فقد وصفوني بما لا أستحق وعرضوا على أمواليهم ودعوني إلى بلادهم) وجد البغداديون المعري غير جدل بالصفات ولاهش إلى معروف الأقوام قصد المعري بغداد سنة ٣٩٨ هجرية منتصف الثلاثينات من عمره وأخذ سفينة للرحيل لكن ولاة السلطان أخذوا السفينة

وصادروها مما اضطره إلى طريق آخر خطير وصعب حتى وصل بغداد قائلا: وبالعراق رجال قريهم شرف هاجرت في حبهم رهطي وأشياعي على سنين تقضت عند غيرهم أسفت، لا بل على الأيام والساع كما أرسل المعري رسالة إلى خاله أبي القاسم جاء فيها (ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد فقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا على في الغيبة وأكرموني دون النظراء) هو القائل: لنا ببغداد من نهوي تحيته فإن تحملتها عنا فتحيتنا كذلك: متي سألت بغداد عني وأهلها فإني عن آل العواصم سال إذا جن ليبي جن لبي وزائد خفوق فؤادي كلما خفق الأل إن وجود المعري ببغداد كان سببا في الكثير

من الأحداث والمنازلات الشعرية والإدبية والمذهبية والفكرية في جو المدينة المحتقن أصلا بشتى المدارس والنزعات الأدبية والعقائد الفكرية والتيارات المختلفة لقد صادف يوم وصوله موت الشريف الطاهر والدة الشريفين الرضي والمرتضي، وحصلت قصص ووقائع منها إنشاد الأشعار في المتوفي شاعرا بعد آخر، حتى قام أخيرا المعري بقصيدته الرائعة ومطلعها أودي فليت الحادث كفاف مال المسيف وعينر المستاف وما أن سمع الشريفان قصيدته التي هزت كيانيهما حتى نزلا إلى إجلالا سائلين: لعلك أبا العلاء المعري قال نعم فأكرماه وقدماه ورفعنا مجلسه ثم استأثرا به مع ذلك كله كانت بغداد تمتحن الوافدين وهكذا كان الإمتحان صعبا مستصعبا في المعري لكنه نجح بنفوق وتميز نادرين كأعجوبة الدهر وفريد العصر عشق المعري بغداد وماءها، قائلا: شربنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيل عرضت علىه كتب بغداد من مدينة العلم وبيت الحكمة وكثير من خزائنها فكان كما قال ابن الفضل (جعل المعري لا يقرأ علىه كتاب إلا حفظ جميع ما يقرأ علىه) تحدث نبيل الحيدري قصصا عديدة عن شدة ذكائه وفرط ذاكرته، وحديث عن اللزوميات وسقط الزند ورسالة الغفران وغيرها وتم اختيار قصائد معينة ومناقشتها وحكمه الكثيرة التي صارت مضربا للأمثال وما تميز به عن غيره منها: في سقط الزند ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن أني جاهل فوا عجا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل إذا وصف الطائي بالبخل مادر وعبر قسا بالفاهة باقل وقال السهي للشمس أنت ضئيلة وقال الدجي للصبح لونك حائل وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصي والجنال فيا موت زر إن الحياة نميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل ثم نكر قصصا أربعة في الحوار والجدل بين المعري والمرتضي منها قول المعري يد بخمس مئين عسجد وديت مابالها قطعت في ربع دينار تناقض مالنا الاالسكوت له وان نعوذ بمولانا من النار يقصد ان الـد اذا قطعت كانت ديبتها تعادل خمسمائة دينار عسجد هذه الـد نفسها تقطع اذا سرقت ربع دينار وهو يتساءل عن ذلك وتناقض مسكوت عنه يعوذ به من النار . وعندها رد على المرتضي عز الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباربي ولاينكر عادة ابو العلاء في بغداد دون ان تذكر مصادمه الشهيرة مع الشريف المرتضي ، فهذا الأخير حين حاول



manarat
WWW.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

عزى كريمة

نائب رئيس التحرير

علي حسين

الايخراج الفني

خالد خضير

التدقيق اللغوي

محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى

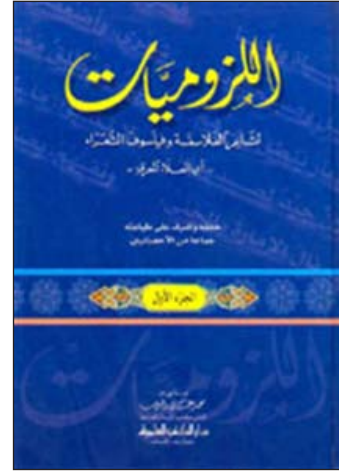


للاعلام والثقافة والفنون

كما شرح نبيل الحيدري بعض مراسلاته ثم قصة وفاته الغريبة تاركا ما يزيد على سبعين مصنفًا. وقد رثاه أكثر من ثمانين شاعرا آنذاك منهم القائل العلم بعد أبي العلاء مضيع والأرض خالية الجوانب بلقع ما كنت أعلم وهو يودع في الثرى أن الثرى فيها الكواكب تودع لو فاضت المهجات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الأدمع رفض الحياة ومات قبل ممانته متطوعا بأبر ما يتطوع قصدتك طلاب العلوم ولا أرى للعلم بابا بعد بابك يقرع إنه البصير بين عميان تمايز عنهم بحكمة وفلسفة وبصيرة خرق الحجب فوصل الى معدن معرفة (فيلسوف العرة) ثم فتحت الإعلامية المغربية فاطمة الحسن مديرة الندوة باب الحوار والمناقشة وكانت هنالك مداخلات وأسئلة كثيرة منها شكر الإعلامي والكاتب خالد القشطيني المنتدي على هذا النشاط والندوة المتميزة وسأل عن وفاة المعري التي أجاد عنها نبيل الحيدري.

ثم سألت عبد السلام أبو شخيووم الفلسطيني هل المعري فيلسوف؟ فشرح نبيل الحيدري عن معني الفلسفة وتعريفها ثم من كتب عن فلسفة المعري مثل طه حسين وعبد الله العلايلي وأمين الخولي ويوحنا قمير في كتاب مستقل عن المعري كفيلسوف في سلسلة فلاسفة العرب، كما كتب المستشرقون الإنكليزي رينولد نيكسون، وليم واط، ديفيد ساموئيل ماركليوت، المستشرقين الروس حول فلسفة المعري في رسالة الغفران... تحدثت الأستاذة الكاتبة بدور الدادة عن قصيدة الجواهري في المعري وعن الدين والمعري، فناقش نبيل الحيدري قضية الدين والمعري وعن مذهب المعري وآرائه كما سألت الأستاذة لميس عبد الله عن رسائل المعري الى داعي الدعاة، ورسائله مع الرومان فأجاب عنها الحيدري. وكان هنالك أسئلة أخرى كثيرة منها سؤال عن الفرق بين الشريفين الرضي والمرضي، والفرق بين المعري والمنتبي، والسؤال هل بين النبي محمد والمعري، وسؤال هل توجد تناقضات عند المعري، وسؤال هل معاني أسماء كتبه: اللزوميات وسقط الزند ورسالة الغفران ورسالة الملائكة وفترات وفقرات وفصول وغايات والأيك والغصون، ونجاح الحرة وعبث الوليد والصاهل والشاحج، وأسئلة أخرى عن علاقته مع إخوان الصفا ببغداد، وسؤال عن العراقيين الذين كتبوا عن المعري، وعن علاقته بالمرأة وتحريمه للزواج، وتحريمه للحم ومشتقاته، وغيرها التي أجاد عنها نبيل الحيدري جميعا بإسهاب وأدلة وأريحية مما جعل الندوة باتفاق الإدارة وكثير من الأساتذة المشاركين من مختلف الدول العربية، تميزها نوعا كندوة متميزة بعمق ودقة وموضوعية تلقي منذ سنوات متمنين أمثالها.

عن موقع أوان الالكتروني



فهو بعد عودته للمعرة ولزومة بيته، الزم نفسه وشعره بشئ من التشاؤم على نفسه واعماله وصار يطرق مواضيع فلسفية لم يالفها ادب العرب كمثل تشبيهه بالنبتانية: فلاتاكلن ما اخرج الماء ظالما ولا تفتحن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من ازهار نبت صحائح وهناك مقولته المشهورة عندهما وصف له الطبيب فروجا في مرضه فتحسسه وصاح : استضعفوك فاكلوك ، هلا اكلوا شبل الاسد وفي ذلك تصريح استعراضي من ابي العلاء فمن ذا الذي يريد اكل شبل الاسد حتى لو اصطاده او اصطاد الاسد نفسه! ثم ان الشيران تؤكل وهي ليست بالضعيفة جسديا! ومضى ابو العلاء في شعره علاني فان بيض الاماني فنيست والدهر ليس بفان ويبلغ القمة في نظراته الى الحياة : غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد وشبيه صوت النعي اذا قيس بصوت البشير في كل ناد ابكت تلك الحمامة ام غنت على فرع غصنها المياد ان حزنا في ساعة الموت اضعاف سرور في ساعة المياد ولعل في تباين نفسية ابي العلاء في مقاميه في عاصمة مثل بغداد حيث انفتاحه وزهوه وافتخاره ونفاؤه وبين عزله في بلدة صغيرة مثل المعرة مادة خصبة لعلماء النفس ليتدارسوا تأثير البيئة على مزاج الانسان وعاداته الومية بل وعلى معتقداته الدينية والفكرية خصوصا اذا كان ذا اعاقه جسدية كالعمي الذي ابتلي فيه ابو العلاء منذ صغره وشدة الإبتلاءات والمحن التي عاناها

الانتقاص من الشاعر المنتبي رد على ابو العلاء صاحب كتاب خاص في المنتبي، منوها بمطلع لامية المنتبي الشهيرة لك يامنازل في القلوب منازل وقطن الشريف المرتضي لبيت القصيد لأن هذا البيت ليس من أروع قصائده: ان المعري يرد على انتقاصه للمنتبي بقول المنتبي في القصيدة نفسها واذا انتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل وقصص أخرى أكثر ظرافة بين المعري والمرضي ثم ذكر الحيدري المجالس الكثيرة المختلفة والمتنوعة في بغداد ودور المعري فيها فلم يترك شاردة ولا واردة دون ان يحاول معرفتها، فجالس الأدياء وحوار الفلاسفة واصحاب الملل والمذاهب ولم يكن يكتفي بالقراءة عنهم بل كان يذهب الى الهم ويحاورهم وينظرهم مباشرة ثم الحديث عن محنته في بغداد وتركه لبغداد في عوامل خمسة شرحها المحاضر نبيل الحيدري بقي المعري عاشقا لبغداد متأسفا على تركها متمنيا الوفاة فيها، قائلا يا لهف نفسي على أي رجعت الى هذي البلاد ولم أهلك ببغدادا كذلك قال المعري فبئس البديل الشام عنكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربي وعند خروجه من بغداد خرج معه الكثير من البغداديين لتوديعه فقال قصيدته في وداعها نبي من الغريان ليس على شرع يخبرنا ان الشعوب الى صدع وبقي يذكر بغداد ويرى انها لاتقارن بغيرها من العواصم: متي سألت بغداد عني واهلها فاني عن اهل العواصم سأل ويحن الى ربوعها: يعارضها راح تحدوه بوراقه ... للكرخ سلمت من غيث ونجيتا لنا ببغداد من نهوي تحيته ... يا ابن المحسن ما أنسيت مكرمة ... فانكر مودتنا إن كنت أنسيتا سقيا لدجلة والدينا مفرقة ... حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا خيلاء المعري او قدما ضجيج عاصمة الدنيا وتراحم الخلق والاهواء والمهارات قال مفتخرا وهو في بغداد اني وان كنت الاخير زمانه لات بما لم تستطعه الاوائل ولعل هذا التفاخر والنزعة لاستعراض النفس والبراعات اللغوية التي لاتجاري هي من دفعت ابا العلاء الى بغداد لبنانزاع ادبائها شرف البلاغة وينزع منهم وهو الاعمي الاعتراف بقدراته التي تفوق قدرات المبصرين ثم ما لبثت ان اطفأها العمر والعزلة في المعرة، ان لم يعرف عن المعري افتخارا بعد رحلته عن بغداد رغم غزارة ما انتجه في معرة النعمان. وما أن رجع الى سوريا، حتى حبس نفسه الى آخر حياته (رهين الحبسين) بل سماها أيضا السجون الثلاث. واصبح شيئا من الهجاء في (اللزوميات) ،

من قطع رأس المعري ؟

علي حسين

أشهر الشعراء في تاريخ الأدب العربي



أبو العلاء المعري

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٧ م

هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد

فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة.

وُلد أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان في بلدة "معزة النعمان" من أعمال "حلب" بشمال "سوريا" في ٩٧٣ م.

وعندما بلغ أبو العلاء الثالثة من عمره أصيب بالجذري. وقد أدى ذلك إلى فقد بصره في إحدى عينيه. وما لبث أن فقد عينه الأخرى بعد ذلك.

وكان لذكائه ونبوغته أكبر الأثر في تشجيع أبيه على إرساله إلى "حلب" - حيث يعيش إخوانه - ليتلقى العلم على عدد من علمائها، وهناك التقى بالنحوي "محمد بن عبدالله بن سعد" الذي كان راوية لشعر "المتنبي"، ومن خلاله تعرّف على شعر "المتنبي" وتوثقت علاقته به.

منزلته الشعرية:

غلب على شعره طابع الفلسفة والحكمة، رصد الحياة الاجتماعية والفكرية في عصره؛ فتراه يشارك بقضاياه الحماسية في تسجيل المعارك بين العرب والروم، كما عبر في شعره عن ضيقه وتبرمه من فساد عصره واختلال القيم والموازين فيه، ويكشف عن كثير مما ظهر في عصره من صراعات فكرية ومذهبية.

وبدا نجمه يلمع، حتى أضحت من الشعراء المعدودين والعلماء المبرزين؛ مما أثار عليه أقرانه وحساده، فأطلقوا السننهم عليه بالأقاويل، وأثاروا حوله زواجر من الفتن والإتهامات بالكفر والزندقة، وحرضوا عليه الفقهاء والحكام، ولكن ذلك لم يدفعه إلى اليأس أو الإنزواء، وإنما كان يتصدى لتلك الدعاوى بقوة وحزم، ساخراً من جهل حساده، مؤكداً إيمانه بالله تعالى ورضاه بقضائه...

نماذج من شعره:

عَرِيتْ بِذِمِّي أُمَّةً وَيَحْمَدُ خَالِقَهَا غَرِيتْ
وَعَبَدْتُ رَبِّي مَا اسْتَطَعْتُ، وَمِنْ بَرِيَّتِهِ بَرِيتْ

ومن أقواله:

لا تَصْرَحَنَّ بِضَالٍ، إِنْ سَمِعْتَهُ بِهِ وَلَا تَطْفِيرِ، إِذَا مَا نَاعَبْتَ نَعْبَا
فَالخَطْبُ أَفْطَعُ مِنْ سَرَاءِ تَأْمَلُهَا وَالأَمْرُ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ تَضْمُرَ الرُّعْبَا
إِذَا تَفَكَّرْتَ فَكْرًا، لَا يَمَارِزُكَ فَسَادُ عَقْلِ صَاحِبِهِ، هَانَ مَا صَعِبَا
فَاللُّبُّ إِنْ صُحِّحَ أُعْطِيَ النَّفْسَ فَتَرْتَهَا حَتَّى تَمُوتَ، وَسَمَى جَدُّهَا لَعْبَا
وَمَا الْغَوَانِي الْغَوَادِي، فِي مَلَاعِبِهَا إِلَّا خِيَالًا وَقَتًا، أَشْبَهَتْ لَعْبَا
زِيَادَةَ الْجِسْمِ عَنَّتْ جِسْمَ حَامِلِهِ إِلَى السَّرَابِ، وَزَادَتْ حَافِرًا تَعْبَا

درس الرصافي أشعار أبي العلاء المعري وحفظها وأطلع على معظم ما كتب عنها وكل ذلك في إعجاب شديد وحب صادق، وكان الرصافي يعرف أن المعري ينفر من المديح، فلم يكتب قصيدة في مديحه، لكنه اتخذ من منهجه في التأليف طريقة ليضع كتبه التي أطلق عليها أسماء "الرسالة العراقية" "الرسائل والتعليقات" حتى أن كتابه "الشخصية المحمدية" ذيله بعنوان فرعي "رسالة في حل اللغز المقدس"، تيمنا برسالة المعري "الغفران" كان أبو العلاء ملهم الرصافي في فلسفة الوجود والحياة، حيث سلك مسلكه في انتقاد الساسة والأديان والمذاهب، وقال الرصافي في الأديان ما هو أكثر جرأة من شاعره المفضل، وعندما أصدر طه حسين كتابه "مع أبي العلاء في سجنه" كتب الرصافي "على باب سجن أبي العلاء" وفيه يرد على طه حسين الذي كان يرى في إعاقة المعري سببا لكثرة شكه ونقده للمجتمع، ويرى الرصافي المعري واعيا متماسكا مدركا لنفسه ولتجربته، ولم يكن وليد الإعاقة، ويذهب إعجاب الرصافي بالمعري أن يسميه "شاعر البشر":

طاول الأرض والسما... شارف الشمس والقمر

لا تقل شاعر العرب... إنه شاعر البشر

فالشاعر الضريع يطاول عنان السماء ويشارف بكلتا يديه الشمس والقمر، فيخترق الواقع والخيال، المعري عند الرصافي هو الأستاذ الذي لا أحد قبله ولا أحد بعده، هو صاحب الشعر الحق وهو كعهده أبدا "قادم ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق" الإعجاب بالمعري دفع علامة العراق طه الراوي لأن يفرد له كتابا أسماه "أبو العلاء المعري في بغداد" قال فيه: "ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال، وكان له الحق في الخلود فرط الإعجاب من محبيه ومريديه، وفرط الحقد من حاسديه، وجو من الأسرار يحيط به كأنه من الخوارق، وهذه العلامات الثلاث مجتمعات بأبي العلاء على نحو نادر" وهذا الوصف ليس ببعيد عن قصيدة الجواهري "قف بالمعرة". يقول الجواهري في (ذكرياتي): "كانت القصيدة قد تبوأ تاج قصائدي وملكت شغاف قلبي وضاف مشاعري، وأصبحت المولود الذي انتظرت به بفارغ الشوق والصبر واللهفة، ومن حسن حظي أن استطعت أن أنهي القصيدة قبل الافتتاح بيوم واحد - مهرجان المعري بدمشق عام ١٩٤٤ - ولم يكن لدي متسع لكي أغامر بما يزيد عليها أو ينقص منها، كما هو شأن في كثير من قصائد غيرها". ويضيف: "كان عبثا أن تنجح محاولاتي في الساعة نفسها واليوم نفسه الذي تلقت فيه هذا النبأ المفاجئ، نبأ المشاركة في ذكرى المعري فسهرت ليلتي الأولى حتى الصباح وأحقتها بأخرى وفي الليلة الثالثة كانت حصيلتي من هذه النهارات والليالي الثلاث، قصيدة لا تقل عن السبعين بيتا. يخبرنا بأنه صرخ: وجدتها!! عندما كتب مطلع القصيدة:

قَفَّ بِالْمَعْرَةِ وَأَمْسَحَ خَدَّهَا التُّرْبَا... وَاسْتَوَّحَ مِنْ طَوْقِ الدُّنْيَا بِمَا وَهَبَا

كَدَتْ أَوْقَطَ النَّيَامِ وَأَنَا أُعِيدُهُ بِمَا يَشْبَهُ الصَّرَاخَ، هَذَا هُوَ أَبُو الْعَلَاءِ

المعري وجدته، غير أن ما وجده الجواهري ليس أبا العلاء المعري وإنما

الجواهري نفسه، الجواهري الذي كان يتلمس أفكار المعري ليجد من خلالها ذاته القلقة الصاخبة التي هي شبيهة بذات المعري الضاحجة، المنفرة، الباحثة في كل شيء، وعن أي شيء:

نَعَا عَلَيْكَ وَأَنْتَ النُّورُ، فَلسَفَةٌ سَوْدَاءٌ لَأَلَذَّةُ تَنْغِي وَلَا طَرِبَا

وَحَمْلُوكَ وَأَنْتَ النَّارُ لَاهِبَةٌ وَزَرَّ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْحَبَّ مَلْتَهَبَا

ويضيف الجواهري في "ذكرياتي": "بينما كنت ألقى القصيدة كانت يدي

اليمنى تمتد، عفو الخاطر، إلى الكتف اليسرى للدكتور طه حسين، الذي كان

بجانبني، وهذا الرجل ليس أبا العلاء، لكنه كان الوحيد ممن يجمع ما بين

فكره وملامحه شيئا غير قليل من خصائصه.

المعري الذي عاش مسالما رفضا الجور والظلم لم يجد من أحزاب الإسلام

السياسي اليوم سوى لغة "الفاَس" التي انهالت على حكيم المعرة لتعلن

عصر غياب الحكمة.. مثلما انهالت فأس أخرى في مصر لتقطع رأس طه

حسين معلنة بوضوح انسحاب مصر من عمادتها للثقافة والفنون والفكر..

ليست القضية في قطع رؤوس رموز النهضة العربية.. لكنها في الجماعات

الظلامية التي لا تريد للناس أن تعيش في النور.. وليس بعيدا عن رأس

المعري المقطوع، قتل المعارض التونسي شكري بالعيد، وفتوى اباحة دم

المعارضين التي اصدرها رجل دين في مصر، واعتقال السيد احمد القبنجي

في ايران التي وجدت في رأسه خطرا يجب استئصاله.

لا مكان للاختلاف مع الآخر.. فالفأس دائما حاضرة